

# الفقه الإسلامي

تأليفه. اصالة. مداركه



تأليف  
بأشرافه في الهند

الْفَقِيْهَ الْإِسْلَامِيْ  
تَأْسِيْسُهُ. أَصَالَتُهُ. مَدَارِكُهُ





# الفَقِيرُ السَّالِمِيُّ

## تَأْسِيسُهُ. أَصَالَتُهُ. مَدَارِكُهُ

تَأَلَّفَ  
بِإِشْرَافِ نَفِيَّ الصَّهْبَانِيِّ

قرشي، باقر شريف، ١٩٢٦ -  
الفقه الإسلامي تأسيسه - أصوله - مداركه / تأليف باقر شريف قرشي. - قم:  
دار الهدى، ١٣٨٢.

١٥٧ ص.  
ISBN 964 - 5902 - 79 - 0

فهرستويسی بر اساس اطلاعات فيفا.

عربي.

کتابنامه: به صورت زیر نویس.

١. فقه. ٢. فقه -- تاريخ -- ٣. فقه جعفري -- قرن ١٤. الف. قرشي.

٧ ف ٤ ق / ٩ / ١٦٩ Bp ٢٩٧ / ٣٢٤

٦٣-٨٢م

کتابخانه ملی ایران

## هوية الكتاب

اسم الكتاب: ..... الفقه الإسلامي تأسيسه - أصوله - مداركه

اسم المؤلف: ..... باقر شريف القرشي

الناشر: ..... دار الهدى

الطبعة: ..... الأولى / ١٤٢٤ هـ - ١٣٨٢ هـ

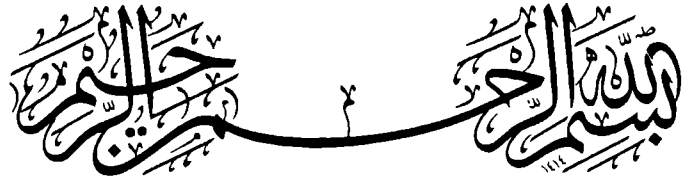
المطبعة: ..... شريعت

عدد النسخ: ..... ١٥٠٠

جميع الحقوق محفوظة للمؤسسة الإسلامية للبحوث والمعلومات

شابك ٠-٧٩-٥٩٠٢-٩٦٤

ISBN: 964 - 5902 - 79 - 0



الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \*

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \*

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ \*

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ \*

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ \*

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ \*

فاتحة الكتاب



# الهدى

إلى... فقيد العلم والتقوى

سماحة حجة الإسلام والمسلمين أخي الهادي

نحضر الله مثواه...

أرفع لروحه الطاهرة هذه الدراسة عن الفقه  
الإسلامي الذي كان معنياً به، ومتمرساً في  
بعوثه، آملاً من الله تعالى أن يرفع مقامه، ويبزله  
له المزيد من الأجر على ما أسداه إلي من لطف  
وإحسان، إنه تعالى ولي ذلك والقادر عليه.





# فَقِيرٌ



الفقه الإسلامي في تشريعاته الخالدة يساير الطبيعة ، ويواكب الفطرة ، ويتطوّر مع الزمن ، وينسجم مع الحياة ويتفاعل معها ، ويوضّح لها القصد ، ويضيء لها الطريق ، ويمدّها بمقوّمات النهوض والارتقاء ، فقد عالج جميع مشاكل الحياة ، ووضع لها الحلول الحاسمة.

إنّ الفقه الإسلامي بجميع مناهجه وقواعده وأحكامه ليس فيه أي لون من ألوان الترف ، وإنّما كان من ضروريات الحياة التي لا تستقيم ولا تصلح من دونه ، وسيبقى شعلة وهّاجة يجمع ولا يشتّت ، ويوحد ولا يفرّق ، فهو المنقذ والمحرّر للإنسان في جميع أدوار حياته..



وليس فيما شرّعه الإسلام في أحكامه الأولى عسر أو حرج أو ضيق على العباد ، وإنّما هي متّسمة بالرفق والرأفة والرحمة ، فأدلة رفع العسر والحرج في الكتاب والسنة حاكمة على الأدلة الأولى كما قرّر في علم الأصول ، فإن نشأ من التكليف في بعض حالات المكلف عسر أو حرج ارتفعت فعليه الأحكام الأولى..

كما أنَّ جميع ما قَنَّ في المعاملات ليس فيها ضرر من أحكام أو إضرار ، ففي الحديث النبوي : « لا ضرر ولا ضرار في الإسلام » ، لقد بنيت أحكام المعاملات على أرقى ألوان العدل وصيانة الحقوق ، فلا غبن ، ولا خداع ، ولا غش ولا مخالفة للشرط في ضمن العقد ، وإن نشأ من ذلك بعض هذه الأمور ، فقد فتح للمتعاقدين أبواب الخيارات التي تفسخ المعاملة إن شاء المتضرر ، وذلك حسبما قرره الفقهاء ، وبذلك فقد ضمن لكل من المتعاقدين حقَّه وسلامته من الضرر والغبن ..



وليس فيما شرعه الإسلام من أحكام مسايرة لهوى قوم أو مسايرة لرغبات آخرين ، وإنما كانت ناظرة إلى المصلحة العامة لا تتعداها ، ولا تحفل بغيرها ، وقد حذر الله تعالى نبيه العظيم محمداً ﷺ من مسايرة قومه فيما يرونه من تشريع .  
قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٢) .  
إنَّ الشريعة الإسلامية قد تبنت بصورة إيجابية المصالح العامة لجميع شعوب العالم وأمم الأرض ، ولا صلة في تشريعاتها للأغراض الخاصة التي بها اختلال النظام وفساد المجتمع .

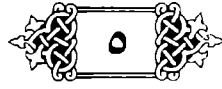


والشيء البارز فيما قَنَّه الإسلام من أحكام أنها أسست على الأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة كالصدق ، والوفاء بالوعد ، والإخلاص في العمل ، والتعاون ، وحبِّ

(١) البقرة : ١٤٥ .

(٢) البقرة : ١٢٠ .

الخير للناس إلى غير ذلك من الصفات الرفيعة التي تسمو بالإنسان ، كما بنى شريعة من أحكامه على النهي عن الكذب ، وخلف الوعد ، والغيبة ، والنميمة ، والحقْد والحسد ، والغش ، والخيانة ، والخداع والتضليل ، وغير ذلك من الصفات الأثيمة التي تُفسد حياة الناس وتلقيهم في شرّ عظيم.. لقد أقام الإسلام فقهه على كلّ ما تصلح به الحياة وتستقيم به شؤون العباد..



وكان البارز فيما ذهبت إليه العدلية في بحوثها الكلامية إلى أنّ جميع ما شرّعه الإسلام من أحكام إلزامية ، سواء أكانت وجوبية أم تحريرية ، لا بدّ أن تكون محتوية على مصلحة ملزمة في جانب الواجبات ، وعلى مفسدة في جانب المحرمات ، وأنّ المصلحة لا بدّ أن تكون كامنة في الأمور به ، وكذلك المفسدة لا بدّ أن تكون كامنة في نفس المنهي عنه.

ومن النادر جدّاً أن تكون المصلحة في نفس الأمر كما في الأوامر الامتحانية ، والتي منها أمره تعالى لشيخ الأنبياء إبراهيم عليه السلام بذبح ولده إسماعيل ، فإنّه لا مصلحة في ذبحه لإسماعيل ، وإنّما المصلحة في امتحانه وإظهار مدى طاعته إلى الله ليكون رائداً للناس إلى عبادة الله تعالى.

وقد شدّت الأشاعرة وابتعدت عن الطريق القويم ، فذهبت إلى أنّ أحكام الإسلام عارية عن المصالح والمفاسد ، وهذا الرأي شاذّ وخالف من الأدلّة العلمية ، وقد أقامت العدلية التي تضمّ الشيعة والمعتزلة عشرات الأدلّة على فساده وضلالته..



أمّا الشرائع السماوية السابقة على الإسلام من الموسوية والمسيحية فقد كانت التشريعات فيهما محدودة غير وافية بحاجات الناس وتطلّعاتهم في كلّ عصر وزمان ،

فالشريعة الموسوية قد قصرت أحكامها على الجوانب المادية من حياة الناس ، وأهملت إهمالاً كلياً الأسس الأخلاقية التي يؤمن بها الناس ، والتي هي من ضروريات حياتهم.. وأما الشريعة المسيحية فإن تشريعاتها ناظرة إلى الحياة الروحية ، ولم تعالج الجوانب المادية التي هي من شرايين الحياة..

أما الإسلام - والحمد لله - فقد شرع نظاماً اجتماعياً كاملاً وجامعاً بين الحياة الروحية والمادية ، ومبنيّاً على تقديس كرامة الإنسان ، وضمان ما يصبو إليه من الحرية والكرامة والأمن والرخاء وجميع تشريعاته تسير حياة الناس في كل عصر وزمان..



الفقه الإسلامي هو الترجمة الصادقة لشريعة الإسلام ، والصورة الكاملة للقرآن الكريم ، وقد احتل الصدارة والتقدم على جميع أنواع العلوم والمعارف ، وقد حفل بمعادن الثروة الحاسمة لجميع قضايا الإنسان ، وقد أبدع المجتهدون العظام - زادهم الله أجراً - فيما حققوه في بحوثهم ومؤلفاتهم جميع جوانب هذا العلم الشريف ، وأمدوا أهل العلم بالمناهج السليمة التي توصلهم إلى طريق الاجتهاد والفتيا..

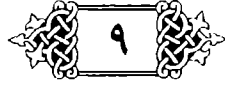
لقد انبرى المئات من عباقرة الفقهاء وأساطينهم في مختلف العصور إلى الإبداع والتطور في علم الفقه ، فألفوا الموسوعات كـ ( جواهر الكلام ) و ( الحقائق الناضرة ) و ( مستمسك العروة الوثقى ) و ( مهذب الأحكام ) و ( فقه الإمام الصادق عليه السلام ) وغيرها من الموسوعات التي بحثت بحثاً موضوعياً جميع جوانب الفقه وفروعه ، وتعدّ من كنوز الفقه الإسلامي.



والشيء البارز في أصالة الفقه الإسلامي وحيويته أنه كان حاكماً ومرجعاً في معظم أنحاء العالم ، وذلك حينما امتدت الدولة الإسلامية العظمى من الصين إلى المحيط

الأطلسي ، ومن بحر قزوين إلى المحيط الهندي وأنحاء الجزيرة العربية وأواسط آسيا وشبه القارة الهندية وشمال إفريقيا ومعظم شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وكان الخليفة العباسي يخاطب السحاب قائلاً: أينما تمطرين ففي ملكي..

وقد نعمت هذه الأقاليم والشعوب على اختلاف قومياتها ولغاتها بنعمة الفقه الإسلامي في قضائه وحدوده ومعاملاته وسائر أحكامه التي شملت جميع مناحي الحياة ، وبلغت به أسمى مراحل التقدم والتطور الاجتماعي..



وبعد ما وقع العالم الإسلامي فريسة بأيدي المستعمرين جهدوا على تفتيت أوصاله ، وسلب ثرواته ، ونهب إمكانياته ، وكان من أقسى ما أنزله المستعمرون من الدمار الشامل في بلاد المسلمين هو إقصاء الفقه الإسلامي عن حياة المسلمين . وإنشاء القوانين الوضعية التي هي خالية من الروح والإحساس ، ولا تقاس بأي حال من الأحوال بالفقه الإسلامي المزدهر والمتطور ، والذي هو من مشاعل النور ، وإنما عمدوا إلى ذلك لإضعاف الروح الدينية ، وإبعاد المسلمين عن دينهم الذي عالج جميع مشاكل الحياة ووضع لها الحلول الحاسمة..



ونعود للحديث عن الفقه الإسلامي . فإن من أكثر بحوثه أصالة وأعمقها نظراً هي البحوث المستمدة من أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين هم حضنة الإسلام . وعدلاء الذكر الحكيم كما في حديث الثقلين المتواتر ، فإن ما أثر عنهم في هذا الفن يتصل اتصالاً مباشراً بجدهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فكلهم يروون عنه ، يأخذون منه ما شرع ، وليست لهم أية فتوى أو حكم يجافي ما أثر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وبالإضافة لذلك فإن الفقه المأخوذ

عنهم جميعه من عباداته ومعاملاته على سمت واحد لا اختلاف فيه ، ولا تباين في أحكامه ، ويدعم ذلك أَنَّ الرسائل العملية التي أَلَفها فقهاء الشيعة لمقلديهم في مختلف العصور كُلها على نهج واحد في الفتيا ، والاختلاف فيما بينهم في بعض الفتاوى نادر ، وسببه هو ما يستفيدة الفقيه من الأدلة الاجتهادية ، أو ما يستفيدة من الأصول العملية التي تجري عند فقدان النص أو إجماله أو تعارضه ، والتي لا يذهب إلى بعضها المجتهد الآخر ، وهذا هو سبب الاختلاف في الفتيا..



ولعل من المفيد جداً التنبيه على شيء بالغ الأهمية ، وهو اقتصار الشيعة على فقه أهل البيت عليه السلام ، فإن ذلك لم يكن تعصباً منهم ، أو طعناً في أئمة المذاهب ، وإنما ساقتهم إلى ذلك الأدلة القطعية من الكتاب والسنة والتي لا يجوز للمسلم طرحها ولا الغض عنها ، فآية المودة ، وآية التطهير ، وآية المباهلة وغيرها من الآيات صريحة وواضحة في لزوم الأخذ بما أثر عن العترة الطاهرة من الأحكام الشرعية ، وكذلك ما ورد في السنة الشريفة كحديث الثقلين ، وحديث السفينة وغيرها من مئات الأحاديث التي تلزم المسلمين بالتعبّد والعمل بما صدر عن أهل البيت عليه السلام من أحكام.. ولم يذهب أحد من فقهاء المسلمين إلى أَنَّ العمل بفقه أهل البيت عليه السلام باطل وغير مجزٍ ولا مبرئ للذمة ، كما أَنَّ من المؤكّد لو أَنَّ الأدلة العلمية قد نصّت على عدم جواز العمل بفقه أهل البيت عليه السلام لنبذته الشيعة ولم تأخذ به..



وكان من أهم الأسباب التي حفّزتني لتأليف هذا الكتاب ونشره بين الناس هو أنني رأيت معظم من كتب من الأساتذة عن تأسيس الفقه الإسلامي وتاريخه وأصوله ودوره

المشرق في بناء الحضارة الإنسانية قد أهملوا بصورة متعمدة أو غير متعمدة الدور  
الفعال لأئمة أهل البيت عليهم السلام في تأسيس هذا العلم ، وهم مراجع الأمة ، وأساتذة أئمة  
المذاهب الإسلامية ، وإليهم يرجع الفضل في تأسيس هذا العلم الشريف وتجديده...  
لذا بادرت إلى تأليف هذا الكتاب ، وذكرت بصورة موضوعية وشاملة دورهم المشرق  
والفعال في بيان قواعد الفقه والأصول ، ووضعهم للبرامج التي تكون منها الفقه  
وأصوله ، وما قام به علماء الشيعة من جهد خلاق في تأليفهم المستمر من موسوعات  
وغيرها عرضت بصورة موضوعية وشاملة إلى مدارك علم الفقه وفروعه وما يستجد فيه  
من المسائل ، وغير ذلك من شؤونه..



ونعود للحديث عن بيان بعض محتويات هذا الكتاب ، فقد عرض لمعنى الفقه لغةً  
واصطلاحاً وتأسيساً ، مع بيان بعض الأدوار التي اجتازت عليه ، كما يعرض لمدارك  
الفقه الإسلامي التي يستنبط منها الفقيه الحكم الشرعي ومن أهمها الكتاب العزيز  
والسنة المقدسة ، ومن بحوث هذا الكتاب الاستدلال على استقلال الفقه الإسلامي  
وعدم ارتباطه بالقانون الروماني ، ولا بغيره من القوانين الوضعية التي أثبتت البحوث  
العلمية فشلها ، وعدم استطاعتها حل مشاكل الإنسان ، ومن فصول هذا الكتاب فتح  
باب الاجتهاد عند الشيعة ، وهو من ضروريات الفقه الإسلامي الذي يدعو إلى  
الانفتاح والتطور ، أما غلق باب الاجتهاد فقد شجبه أعلام الفكر الإسلامي من شيوخ  
الأزهر وغيرهم ، وذلك لما يترتب عليه من المضاعفات السيئة التي سنذكرها في بنود  
هذا الكتاب..

وقد بحثنا جميع ذلك ببحث حرّ جهد ما توصل إليه تتبّعي آملاً أن يجد القارئ  
الكريم فيه الفائدة والمتعة وهو ما أتمناه..



١٦ ..... الفقه الإسلامي : تأسيسه - أصالته - مداركه

وقبل أن أطوي هذا التقديم أرفع آيات الشكر والتقدير إلى سيدنا المعظم حجة  
الإسلام والمسلمين السيد جواد الوداعي دامت بركاته على ألفاظه المتواصلة لمكتبة  
الإمام الحسن عليه السلام ، شكر الله مساعيه ، وبلغه أمانيه ، إنه تعالى ولي التوفيق..

مكتبة الإمام الحسين عليه السلام

الجفأ لأشرف

قزوين الهندي

١٤ / ربيع الثاني / ١٤٢١ هـ

الفقه

لغة

واصطلاحاً

وتأسيساً

---



وقبل الخوض في شؤون علم الفقه نعرض إلى بيان مدلوله لغة واصطلاحاً ،  
وفيما يلي ذلك :

### المعنى اللغوي

الفقه - بالكسر - في اللغة يطلق على عدّة معانٍ ، كان منها :

- ١ - العلم بالشيء : يقال : فلان فقه الشيء ، أي علم به .
- ٢ - الفهم : يقال : أوتي فلان فقهاً في الدين ، أي فهماً له <sup>(١)</sup> . ومنه قوله تعالى :  
﴿ وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي \* يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا  
تَقُولُ ﴾ <sup>(٣)</sup> ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ <sup>(٤)</sup> .
- ٣ - الفطنة : قال الجوهري : قال امرؤ القيس : شهدت عليك بالفقه ، أي بالفطنة .  
وفي حديث سلمان أنه نزل على نبطية في العراق فقال لها : هل هناك مكان نظيف  
أصلّي فيه ؟ فقالت له : طهر قلبك وصلّ حيث شئت ، فقال سلمان : ففهمت <sup>(٥)</sup> .
- ٤ - الفقه أخص من الفهم : قال ابن القيم : الفقه أخص من الفهم ؛ لأنّ الفقه فهم مراد

(١) التعريفات (الجرجاني) : ١١٢ .

(٢) طه : ٢٧ و ٢٨ .

(٣) هود : ٩١ .

(٤) الأعراف : ١٧٩ .

(٥) تاج العروس ٩ : ٤٠٢ .

المتكلم من كلامه ، وهو قدر زائد على مجرد فهم اللفظ في اللغة ، ويتفاوت الناس في الفهم بتفاوت مراتبهم في الفقه والعلم<sup>(١)</sup> .  
هذه بعض المعاني للفقه التي ذكرها المعنيون في اللغة .

### في الاصطلاح

الفقه الإسلامي - في اصطلاح العلماء - علم كبقية العلوم لا بد له من تعريف وموضوع وغاية ، وهي من البحوث التمهيدية التي لا بد من معرفتها قبل أن يخوض الطالب في دراسة علم الفقه وغيره ، وتسمى - عند الأصوليين - بالمبادئ التصورية<sup>(٢)</sup> .

### تعريفه

عرّف علم الفقه بأنه العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية<sup>(٣)</sup> ، وقيل في تعريفه غير ذلك ، وليس من المهم في شيء عرضها والإطلاع على ما يرد عليها من نقض وإبرام ، فإن ذلك لا يعود بفائدة على القراء .

### موضوعه

أمّا موضوع علم الفقه فهو حسبما يرى السيد محمد تقي الحكيم عبارة عن نفس الأحكام الشرعية أو الوظائف العملية من حيث التماسها من أدلتها ، وهذا موضوعه عند آراء المجتهدين من حيث الموازنة والتقييم<sup>(٤)</sup> ، والذي نراه - تبعاً لأكثر الفقهاء - أنّ موضوعه هو أفعال المكلفين التي هي موضوعات للأحكام الشرعية الشاملة للأحكام الخمسة : الوجوب ، والحرمة ، والاستحباب ، والكراهة ، والإباحة .

(١) أعلام الموقعين ٢ : ٢٦٤ .

(٢) حقائق الأصول (الإمام الحكيم) ١ : ٥ .

(٣) المستصفى (الغزالي) : ٥٤ .

(٤) الأصول العامة للفقه المقارن : ١٥ .

## غايته

أمّا الغاية من دراسة هذا العلم الشريف فهو الوقوف على الأحكام الشرعية التي يسأل المكلف المسلم عن معرفتها ، ولا بدّ أن تكون أعماله موافقة لها حتى يسلم من المسؤولية أمام الله تعالى.

## المقدمات التمهيديّة

أمّا المقدمات التمهيديّة للتخصّص في هذا العلم والاجتهاد فيه فهي كما يلي :

### علم النحو

أمّا علم النحو فهو أوّل العلوم التي يدرسها طالب العلوم الدينية ، ولا غنى له عنه ؛ لأنّ من أهمّ مدارك الفقه الكتاب العزيز والسنة المقدّسة ، ولا بدّ من معرفة جملها والإحاطة بما فيها من المبتدأ والخبر والفاعل والمفعول ، وما اشتملت عليه من الحال والتمييز وغير ذلك ، وممّا لا ريب فيه أنّ الطالب إذا لم تكن له دراية بهذه الصناعة فإنّه لا يستطيع استنباط الحكم الشرعي ، ولا يشترط التخصّص والتمرّس في هذا العلم والإحاطة بجميع شؤونه وعِلّله ، بل يكفي معرفة إعراب مفردات الجمل.

### علم المنطق

من العلوم التي ينبغي الإحاطة بها علم المنطق ؛ وذلك للإحاطة بالأقيسة التي يعرف بها صحّة الدليل أو فساده.

### علم الدراية

وهو علم يبحث عن سند الرواية من صحيحها وموثقها ومرسلها إلى غير ذلك ، ويحتاج الفقهاء للوقوف على هذا العلم الذي يلقي الأضواء على الأخبار.

### علم الأصول

وهو من أهم العلوم ومن أكثرها ارتباطاً بعلم الفقه ، فهو من شرايينه وأورده ، ويستحيل أن يصل الطالب إلى درجة الاجتهاد ما لم يتخصّص بعلم الأصول ، وقد أضيفت إليه بعض البحوث التي لا علاقة لها بعلم الفقه كالمعنى الحرفي ، وكتبعية الدلالة للإرادة ، وأكثر بحوث المشتق ، وغير ذلك ممّا هو مدوّن في كتب الأصول . هذه بعض العلوم التي يرتبط بها علم الفقه ، ولا يشترط التخصّص في معظمها سوى علم الأصول .

### نشأة الفقه الإسلامي

وقبل البحث عن نشأة الفقه الإسلامي والأدوار التي اجتازها نعرض - بإيجاز - إلى العصر الجاهلي الذي نشأ فيه النبي ﷺ ، والشيء المؤكّد أنّه لم يكن في ذلك العصر أي تشريع وضعي ، ولم يدوّن أي قانون مدني فيه ملمّ بما يحتاج إليه الناس في حياتهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية؛ لأنّه لم تكن هناك دولة مقامة حتى تتبنّى التشريع المدني ، وإنّما كانت هناك أعراف وعادات مستمدّة من فطرتهم ومعتقداتهم وتقاليدهم ، وكانت البداوة هي السائدة في ذلك المجتمع . فإنّ معظم القبائل العربية كانوا يعيشون في البادية ، وقليل منهم كانوا يسكنون في المدن كمكّة والمدينة والشام .

إنّ العرب في العصر الجاهلي لم يخضعوا لسلطان مركزي أو لدولة حتى تقيم لها قانوناً ينظّم حياتهم .. لقد كانت العصبية القبلية أساس مجتمعهم ، وكان الشائع عندهم استباحة الحقوق ، فالقوي يغزو الضعيف وينهب ثرواته ، كما كان السائد في بعض القبائل وأد البنات ، إلى غير ذلك من العادات الآثمة التي حطّمها الإسلام وأقام على أنقاضها العدالة الاجتماعية الهادفة إلى إشاعة الأمن والرخاء والمساواة بين الناس وضمان حقوقهم .

لقد أقام الإسلام دولته العظمى فى بثر؁ وأتخذها الرسول ﷺ عاصمة له؁ وكان من الطبعى وضعه للقوانين وصياغته لدستور يضمن لكل مواطن حقوقه الطبيعية ويحدد السلطات العامة لجهاز الدولة. لقد أناط الرسول ﷺ بدولته المسؤوليات الكاملة لرعاية المواطنين؁ وتبنى جميع قضاياهم وشؤونهم من دون أن يكون أى تميز بينهم.

### الدور الأول لتأسيس الفتة

يبدأ الدور الأول لتأسيس علم الفتة على يد المشرع الأعظم رائد الحركة العلمية فى الأرض الرسول محمد ﷺ؁ فقد أقام هذا النظام العلمى المتطور الحافل بجميع معانى السمو والارتقاء... أما المناطق التى نشر فيها دعوته؁ وأسس فيها هذا العلم فهى :

#### مكة

وكانت إقامة الرسول ﷺ فى مكة حينما نزل عليه الوحي من رب العالمين؁ وكانت مدة مكثه فيها اثنتى عشرة سنة أو يزيد على ذلك؁ وحددها بعضهم باثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً. أى من ١٨ رمضان سنة إحدى وأربعين من ميلاد النبى ﷺ إلى أول ربيع الأول<sup>(١)</sup>.

وكان ﷺ فى أثناء إقامته فى مكة قد قصر دعوته على توحيد الله تعالى؁ ومقاومة الأصنام والأوثان التى اتخذها القرشيون آلهة يعبدونها من دون الله تعالى؁ وكان ﷺ يقيم لهم الأدلة الحاسمة والحسية على وجود الخالق العظيم؁ وقد حفل القرآن الكريم بالآيات البينات على توحيد الله تعالى وضلال آرائهم فى عبادة غيره؁ وكان ينعى عليهم وأدهم البنات وغير ذلك من العادات القذرة؁ وكان يدعوهم إلى محاسن الصفات ومكارم الأخلاق والآداب...



أمّا التشريعات العملية وإقامة النظام المدني فلم يعرض لذلك الرسول ﷺ سوى النزر اليسير كوجوب الصلاة وتحريم أكل الميتة وشرب الدم وما ضارح ذلك من التشريعات.

#### المدينة

ولمّا هاجر النبي ﷺ إلى يثرب أخذ ينزل عليه الوحي بالتشريعات والأحكام المفصلة والمنظمة لحياة المسلمين التي تكونت منها الدولة الإسلامية ، وهذه بعضها :

#### مناهج التشريع

أمّا مناهج التشريع الإسلامي التي أسسها النبي ﷺ فإنّها تضمن للإنسان كرامته وحرّيته وأمنه ورخاءه وما يصبو إليه ، ونعرض لكوكبة منها :

#### أولاً : المساواة بين المسلمين

وأعلن رسول الإنسانية ﷺ المساواة العادلة بين الناس ، وجعلها عنصراً من عناصر دعوته ، وقال : « ليس لابن بيضاء على ابن سوداء سلطان إلّا بالحق » ، وقال : « كلّكم بنو آدم ، وآدم من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بأبائهم ، أو ليكوننّ أهون على الله تعالى من الجعلان »<sup>(١)</sup>.

إنّ المساواة التي تبناها الإسلام توطّد دعائم السلم في الأرض وتقضي على أسباب الاعتداء والخصومات ، ولا تبقى في النفوس أثراً للحزازات والنعرات . ومن بنود هذه المساواة ما يلي :

#### ١ - المساواة أمام القانون

وألزم الإسلام بالمساواة أمام القانون بلا فرق بين القوي والضعيف ، ولا بين

(١) النظام السياسي في الإسلام : ٢٢٤ ، الطبعة الأولى.

الرئيس والمرؤوس ، وقد أعلن ذلك الرسول ﷺ حينما سئل أن يعفو عن سارقة لشرفها فأجاب : « إنما هلك من كان قبلكم لأنهم كانوا إذا أذنب الضعيف فيهم عاقبوه ، وإذا أذنب الشريف فيهم تركوه ، والله لو سرق فتاة بنت محمد لقطعت يدها... »<sup>(١)</sup>.

ولما مرض النبي مرضه الأخير وشعر بدنو الأجل المحتوم منه اعتلى المنبر وخطب المسلمين قائلاً : « أيها الناس ، من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقدمني ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ، ولا يخشى الشحنة من قبلي فإنها ليست من شأني ، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقاً إن كان له ، أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب ».

لقد أعلن النبي ﷺ المساواة العادلة أمام القانون بلا فرق بينه وبين غيره ، وهذا جوهر المساواة ، وقد أخذ بهذه المساواة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فقد فقد درعاً فوجده عند يهودي فادّعى أنها له ، فرفع الإمام أمره إلى القاضي فحكم لصالح اليهودي ، فما تأثر الإمام وانصاع للقضاء ، وخاصمه اليهودي في أيام حكومة عمر بن الخطاب فقال له عمر : قم يا أبا الحسن ، وقف مع خصمك.

فالتاع الإمام وتغير وجهه ، وشعر بذلك عمر فقال له : يا أبا الحسن ، لعلك ساءك أمري أن تقف مع خصمك اليهودي؟

فأجابه الإمام : « كلا ، وإنما ساءني أنك كنتني ولم تساو بيني وبين خصمي ، والمسلم واليهودي أمام الحق سواء... ».

لقد ألزم الإسلام بالمساواة العادلة بين الناس في القضاء ، وقد ذكرنا بنوداً مشرقة من آداب الإسلام في القضاء في كتابنا (قضاء الإمام من ذخائر الفكر الإسلامي).

## ٢ - المساواة في الضرائب

إنّ الضرائب التي فرضها الإسلام في أموال المسلمين كالزكاة والخمس يتساوى فيها الجميع ، ولا يختص بها قوم دون آخرين ، كما أنّ الجزية تجب على جميع كتابيين المقيمين في بلاد الإسلام من غير فرق بينهم.

### ٣ - المساواة في الواجبات

إنَّ جميع ما فرضه الإسلام من الواجبات كالصلاة والصوم والحجَّ يتساوى فيها جميع المسلمين.

### ٤ - المساواة في التوظيف

إنَّ قواعد العدل التي أعلنها الإسلام توجب المساواة بين جميع المواطنين في الوظائف والمناصب في جهاز الدولة إذا كانوا على مستوى واحد في الدراية بشؤون الحكم والإدارة ، ولا يجوز أن يختصَّ بها قوم دون آخرين .  
إلى هذا ينتهي بنا الحديث عن بنود المساواة التي أعلنها الإسلام ، وهي تضمن للإنسان كرامته وحقوقه ، وتضمن سلامته من الاعتداء.

### ثانياً : الأخوة الإسلامية

ولمَّا هاجر النبي ﷺ من مكَّة إلى يثرب وجد في أهلها الحماية لدينه والاعتناق لرسالته ، وأوَّل عمل قام به هو تأسيس الأخوة الإسلامية بين المسلمين ، فأخى بين الأوس والخزرج وبين المهاجرين والأنصار ، وأخى بينه وبين وصيِّه وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وجعل الأخوة الإسلامية كالأخوة النسبية في قوَّتها ومكانتها ، وهي جزء من العقيدة الإسلامية يسأل عنها المسلم ويحاسب عليها ، وأصبحت هذه الأخوة أنموذجاً رائعاً للوحدة والإيثار والتعاون والتكافل الاجتماعي .  
وبلغت الأخوة الإسلامية القمَّة في روعتها وعظمتها ، فقد أمدَّت العالم الإسلامي بجميع عوامل الارتقاء والنهوض وجعلت المجتمع الإسلامي في تقارب عواطفه ووحدة مشاعره كالجسم الواحد ، يقول الرسول ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

إنَّ الأخوة الإسلامية ليست مجرد عاطفة ، وإنَّما هي ظاهرة فذة تمتدُّ إلى أعماق

القلوب ، ودخائل النفوس ، وتلزم المسلمين بالاشتراك في البأساء والضراء ، وقد أعلن النبي ﷺ ذلك ، فقد بعث رجلاً في حاجة له فأبطأ عليه ، فلما مثل عنده قال له : « ما أبطأك؟ ».

العري..

« أما كان لك جار له ثوبان يعيرك أحدهما؟ ».

بلى يا رسول الله.

فتأثر النبي وقال : « ما هذا بأخ لك »<sup>(١)</sup>.

وتحدّث الإمام الصادق عليه السلام عن الأخوة الإسلامية فقال : « المسلم أخو المسلم ، هو عينه ومرآته ودليله ، لا يخونه ، ولا يظلمه ، ولا يخدعه ، ولا يكذّبه ، ولا يغتابه... ».

وبين الإمام محمد الباقر عليه السلام واقع الأخوة الإسلامية بقوله : « إنّ المؤمن أخو المؤمن لا يشتمه ، ولا يحزنه ، ولا يسيئ به الظنّ ».

لقد بنى الإسلام الأخوة الدينية على أسس عميقة ، فأمر بالأسباب التي تؤدّي إلى توثيقها وهي :

١ - التراحم والتعاطف.

٢ - التزاور.

٣ - الإغاثة والمواساة.

٤ - السعي في قضاء حوائج الإخوان.

كما نهى عن عوامل التفرقة وهي :

١ - السخرية والتنازب.

٢ - الغيبة.

٣ - النميمة.

٤ - التقاطع.

٥ - الإيذاء والتحقير.

٦ - التخويف والارهاب.

٧ - الانتقاص.

٨ - تتبّع العثرات والعيوب.

٩ - التفاخر.

هذه بعض الأسباب التي تؤدّي إلى تصديع الأخوة الإسلامية ، وقد ذكرنا الأخبار التي أثمرت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فيها في كتابنا (النظام السياسي في الإسلام).

### ثالثاً : الحريات

من المبادئ الأصلية التي تبنّاها الإسلام الحريات العامة للإنسان ، وهي من حقوقه الذاتية ، والإنسان الذي يفقد حريته يفقد ذاته ، ومن أنواع الحريات التي أقرّها الإسلام للإنسان :

#### ١ - حرية العقيدة

إنّ الحرية الدينية قد تبنّاها الإسلام وجعلها من الحقوق الأصلية لكلّ كتابي ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ، أمّا قوى الإلحاد والشرك فإنّ الإسلام يقف معهم موقفاً متّسماً بالصرامة ، فإنّ الذي يلحد ويشرك بالله عضو خطر في المجتمع يجب استئصاله ، ويترتب على هذه الحرية ما يلي :

أ - حرية الفكر.

ب - حرية التعبير عن الرأي.

ويشترط في هذه الحرية ألا تكون منطلقاً لبثّ المبادئ الهدامة ، أو إثارة الفتن.

#### ٢ - الحرية السياسية

وهي مشروطة ألا تكون سبباً لإثارة الفتن والعداء بين المسلمين ، وألا ترتبط بجهاز خارجي يكيد للإسلام ويبغي للفتن للمسلمين.

ويترتب على الحرية السياسية حرية الاجتماع ، وتأليف الجمعيات ، وقد بسطنا الحديث في هذه الأمور في كتابنا (النظام السياسي في الإسلام).

### ٣ - الحرية المدنية

ويتفرع على هذه الحرية : حرية العمل ، وحرية السكن في الوطن وخارجه... هذه بحوث موجزة جداً عن الحريات التي منحها الإسلام للمواطنين :

### المناهج الاقتصادية

أقام الإسلام نظاماً اقتصادياً متطوراً يحسم الفقر ويقضي على شبح البؤس ، وذلك ما شرّعه من الأنظمة الخلّاقة التي منها ما يلي :

#### ١ - تشريع الزكاة

وهي ضريبة مالية تقاثل عليها الدولة ، وتلزم بإخراجها ، وتجب في الموارد التالية :

#### أولاً : الغلات الأربعة

وهي التمر والزبيب والحنطة والشعير ، ويشترط فيها بلوغ النصاب ، وغيره ممّا هو محرّر في رسائل الفقهاء .

#### ثانياً : النقدان

وهما الدينار والدرهم المسكوكين بسكّة المعاملة ، ويشترط فيهما بلوغ النصاب ، وقد عرضت لبيانها رسائل الفقهاء .

#### ثالثاً : الأنعام الثلاثة

وهي الإبل ، والبقر ، والغنم ، ويشترط فيها أن تبلغ النصاب ، وأن تكون سائمة . غير معلوفة ، وغير ذلك من الشروط .

هذه هي الموارد التي تجب فيها الزكاة ، وقيل : تجب في التجارة وغيرها حسب ما ذهب إليه بعض الفقهاء من الفريقين الشيعة والسنة .  
إنَّ الزكاة ليست إحساناً فردياً متروكاً لضمير الفرد وشعوره ، فإن شاء أداها وإن شاء تركها ، وإنما هي حق لازم تأخذه الدولة ، وتقاتل عليه ، وقد جاء الأمر بها مقرونة بالصلاة في ثلاثين موضعاً في كتاب الله العزيز.. وهي المصدر الكافي لانعاش الفقراء والمساكين والمحرومين.. ومن الجدير بالذكر أنَّ زكاة كلِّ إقليم وبلد تنفق فيه ، ولا يجوز إخراجها عنه ، وذلك لمكافحة الفقر المحلي .

## ٢ - الخمس

من الضرائب المالية الكبرى التي فرضها الإسلام على أموال الأغنياء الخمس ، فقد أوجبه الله تعالى لنبيه العظيم ولذريته زادهم الله شرفاً عوضاً لهم عن الزكاة ، وهو يجب في سبع موارد وهي :

١ - الغنيمة : وهي ما يحوزه المسلمون بإذن النبي ﷺ أو الإمام من أموال الحرب بغير سرقة ولا غيلة ، سواء أكانت الأموال منقولة أم غير منقولة .

٢ - المعادن : وهي المستخرجة من الأرض كالنفط والكبريت والغاز وغير ذلك .

٣ - الغوص : وهو المستخرج من البحر كاللؤلؤ والمرجان وغير ذلك .

٤ - الحلال المختلط بالحرام ولا يعلم صاحبه ولا قدره .

٥ - الكنز : وهو المال المذخور تحت الأرض ، سواء أكان في دار الحرب أم في دار

الإسلام .

٦ - أرض الذمي المنتقلة إليه من مسلم ، سواء انتقلت إليه بشراء أو بغيره .

٧ - أرباح المكاسب : وهي ما يفضل من مؤونة السنة من أرباح التجارة والصناعة والزراعة ، وسائر أنواع التكتسبات كالكتابة والخياطة وغيرها ، وما فضل من مؤونة السنة يجب فيه الخمس ، وينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : يدفع إلى فقراء السادة تكريماً لهم وشبه جزاء وأجر لجدهم النبي ﷺ على ما تحمَّله من عناء التبليغ لرسالة ربه .

القسم الثاني: يدفع إلى الإمام عليه السلام ، وفي حال غيبته يدفع إلى مرجع الأمة لينفقه على المشاريع الإسلامية ، وفي طليعتها الإنفاق على طلبة العلوم الدينية الذين هم دعاء الشريعة ، وقد عرضت رسائل المراجع الإسلامية إلى بيان الخمس بصورة موضوعية وشاملة.

## ٢ - الضمان الاجتماعي

من بنود الاقتصاد الإسلامي تشريعه للضمان الاجتماعي ، وهو مسؤولية الدولة عن ضمان معيشة المواطنين ، وهذه بعض صورته :

أ - تسديد الإعواز: ونعني به: أنَّ المواطنين الذين لا يكفيهم كسبهم فإنَّهم يأخذون بقية نفقتهم من بيت الدولة ، والدولة مسؤولة عن تسديده.

ب - وفاء الدين: أنَّ الطبقة الفقيرة إذا استندت لوجه مشروع كالدين للزواج أو لشراء دار أو بنائه أو الإنفاق على مرض وعجزت عن وفائه فعلى الدولة القيام بوفائه ، وقد ورد في الحديث : « من توفي فترك ديناً فعلي قضاؤه »<sup>(١)</sup> ، وقال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام : « من طلب هذا الرزق من حلّه ليعود به على نفسه وعياله كان كالمجاهد في سبيل الله ، فإن غلب عليه فليستدن على الله ورسوله ما يقوت به عياله ، فإن مات ولم يقضه كان على الإمام قضاؤه ، فإن لم يقضه - أي الإمام - كان عليه وزره ، إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ - إلى قوله تعالى - : وَالْفَارِمِينَ ﴾ ، وهذا فقير مسكين مغرم »<sup>(٢)</sup>.

وقال الإمام الصادق عليه السلام : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أيما مؤمن أو مسلم ترك ديناً ولم يكن في فساد ولا إسراف فعلى الإمام أن يقضيه ، فإن لم يقضه فعليه إثم ذلك ، إنَّ الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ ، فهو من الفارمين ، وله سهم عند الإمام ، فإن حبسه فإثمه عليه »<sup>(٣)</sup>.

(١) البخاري ٣ : ١٧٩.

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر ١ : ٢٣٣.

(٣) أصول الكافي ١ : ٤٠٧.



٣٢ ..... الفقه الإسلامي : تأسيسه - أصوله - مداركه

وقال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام : « الغارم إذا تدّين أو استدان في حق أجل سنة ، فإن اتسع وإلا قضى عنه الإمام من بيت المال » <sup>(١)</sup> . إلى غير ذلك من الأخبار التي تلزم الدولة بالإنفاق لتسديد ديون العاجزين عن تسديدها .

#### ٤ - الإنفاق على العاجزين

يجب على الدولة أن تنفق على العاجزين عن العمل لمرض أو شيخوخة أو عمى ، ولم يكن لهم مال ولا ولد يقوم بالإنفاق عليهم ، وقد ذكر المؤرخون أنّ عمر بن عبدالعزيز جعل لكلّ أعمى قائداً ، ولكلّ مقعد خادماً ، وفرض للزمنى رزقاً مخصوصاً حتى قيل : إنّ الزمن أحبّ إلى أهله من الصحيح .

#### ٥ - المبرات للضعفاء

من بنود الاقتصاد الإسلامي مسؤولية الدولة عن تقديم المبرات والمعونات باستمرار للضعفاء والفقراء ، وقد أعلن ذلك رائد العدالة الإسلامية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر ، قال عليه السلام : « ثُمَّ اللَّهُ اللَّهُ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ ، مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسِ وَالزَّمْنَى » <sup>(٢)</sup> ، فإنّ في هذه الطبقة قانعاً <sup>(٣)</sup> وَمُعْتَرّاً <sup>(٤)</sup> ، وَاحْفَظْ لِلَّهِ مَا اسْتَحَقَّكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ ، وَقِسْماً مِنْ غَلَّاتِ صَوَافِي <sup>(٥)</sup> الْإِسْلَامِ » .

ويؤكد الإمام عليه السلام اهتمامه البالغ برعاية الفقراء قائلاً : « فَلَا تَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطْرٌ » <sup>(٦)</sup> ،

---

(١) أصول الكافي : ١ : ٤٠٧ .

(٢) الزمنى : جمع زمن ، وهم أرباب العاهات المانعة لهم من الاكتساب .

(٣) القانع : السائل .

(٤) المعتز : المتعرّض للعطاء بلا سؤال .

(٥) الصوافي : جمع صافية ، وهي أرض الغنيمة .

(٦) البطر : طغيان النعمة .

فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِكَ الثَّافَةِ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرِ الْمُهْمِّ. فَلَا تُشْخِصُ<sup>(١)</sup> هَمَّكَ عَنْهُمْ ، وَلَا تُصْعِرْ حَدَّكَ لَهُمْ ، وَتَقْعُدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ<sup>(٢)</sup> ، وَتَحْقِرُهُ الرَّجَالُ ، فَفَرِّغْ لِأُولَئِكَ يَقْتَلَكَ مِنْ أَهْلِ الْحَشِيَّةِ وَالتَّوَاضِعِ ، فَلْيَزِفْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ ، ثُمَّ اْعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ تَلْقَاهُ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ».

أرأيتم هذا الاهتمام من الإمام عليه السلام بشؤون الضعفاء والمحتاجين.

ويؤكد الإمام اهتمامه باليتامى والمسننين فيأمر بمساعدتهم ورعايتهم قائلاً: « وَتَعَاهِدْ أَهْلَ الْيَتَمِ وَذَوِي الرَّقَّةِ<sup>(٣)</sup> فِي السَّنِّ مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ ، وَلَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ ، وَذَلِكَ عَلَى الْوَلَاةِ ثَقِيلٌ ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ » .

واشتملت هذه البنود على جميع ألوان الرحمة والبر بالضعفاء ، وليس هناك مذهب أو دين من الأديان قد تعهد الفقراء بمثل هذا العطف والحنان.. وهو من الصور الرائعة للاقتصاد الإسلامي.

#### ٦ - التكافل الاجتماعي

ونعني به المسؤولية الكاملة للإنفاق على الزوجة والأبوين ، وذلك على سبيل الوجوب ، والإنفاق على ذوي الأرحام وهو مستحب ، وإذا طبق ذلك فلا يبقى بائس ومحرور.

#### ٧ - رقابة الدولة

مما يحفظ التوازن الاقتصادي في البلاد رقابة الدولة ، فإنها مسؤولة عن مؤسسات المالية والمحلات التجارية والأسواق ، ومن أهم مسؤولياتها ما يلي :

أ - منع الربا : أما الربا فهو من أشد المحرمات في الإسلام ؛ لأنه يؤدي إلى تكدس

(١) لا تشخص: أي لا تصرف همك عن مراعاتهم.

(٢) تقتحمه العيون: أي تحتقره.

(٣) ذو الرقة: المتقدمون في السن.

الثروة عند جماعة من الناس وتحرم الأكرية الساحقة منها ، بالإضافة إلى أنه يؤدي إلى انتشار البطالة وشيوع الفقر والفساد ، وقد تضافرت الأخبار بتحريمه والمنع منه ، فقد أثر عن الإمام الصادق عليه السلام : « أن درهماً من الربا أعظم عند الله من سبعين زنية كلها بذات محرم في بيت الله الحرام » ، وفي الحديث النبوي : « من أكل الربا ملأ الله بطنه من نار جهنم بقدر ما أكل ، وإن اكتسب منه لم يقبل الله منه شيئاً من عمله ، ولم يزل في لعنة الله والملائكة ما كان عنده قيراط واحد »... إلى غير ذلك من الأخبار التي جعلته من أقطع الجرائم والموبقات..

ب - منع الاحتكار : ومن برامج الاقتصاد الإسلامي المنع من الاحتكار ، والدولة مسؤولة عن حماية المواطنين من المحتكرين الذين يدفعهم الجشع والطمع إلى نهب أقوات الناس ، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر : « وأعلم أن في كثير منهم - أي من التجار - ضيقاً فاحشاً ، وشحاً قبيحاً ، واختكاراً للمنافع ، وتحكماً في البياعات ، وذلك باب مصرة للعامة ، وعيب على الولاة . فامنع من الاختكار ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - منع منه ... ».

وأضاف الإمام قائلاً : « فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به ، وعاقبه في غير إشراف ».

ويثبت الاحتكار في الحنطة والشعير والتمر والزبيب والسمن والزيت ، فإذا احتكر التاجر أحد هذه الأمور وجب على الدولة أن تأخذها منه ، وتتولى تسعيرها إن أجحف صاحبها بالسعر<sup>(١)</sup>.. إن الاحتكار يوجب الضرر العام على اقتصاد الأمة ، ويجر لها الويلات ، كما أنه يعاكس التنافس في صنع السلع أو جلبها إلى الأسواق الذي تترتب عليه جملة من الفوائد والمصالح ، يقول بعض من كتب في علم الاقتصاد : يعترف الخاص العام بمزايا التنافس ، وبمضار الاحتكار ، وأنهما فعلاً متناقضان ، إذ من مزايا التنافس زيادة الإنتاج في جميع الأصناف ، والتنزيل

التدريجي في الأسعار، فتستفيد من ذلك الطبقات الفقيرة أكثر من غيرها، وتنظيم الأرباح، وإيجاد نسبة بينها وبين أجر العمال، وتوزع الثروة على الجميع بطريقة أعدل نوعاً ما مع إيجاد تساوي قيمها بين جميع الصناعات، وعلى نقبض هذه المزايا يقوم الاحتكار، وتظهر مضاره خصوصاً في رفع الأسعار بغير مقتضى<sup>(١)</sup>.

وقد عقد ابن خلدون في مقدّمته فصلاً إلى أضرار الاحتكار وما ينجم منه من شلّ الحركة الاقتصادية في البلاد

وبهذا العرض الموجز عن الاقتصاد الإسلامي ينتهي بنا الحديث، ومن الجدير بالذكر أنّه قد تخصّصت بعض الكتب إلى الجوانب الاقتصادية في الإسلام وهي:

١ - الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام.

٢ - الخراج لأبي يوسف.

٣ - الخراج ليحيى بن آدم.

٤ - الأحكام السلطانية للماوردي.

٥ - الأحكام السلطانية لأبي يعلى الحنبلي.

وقد بحث المعنيون بالاقتصاد الإسلامي من المحدثين بحثاً موضوعية في منتهى الروعة أثبتت أصالة الاقتصاد الإسلامي الذي بُني ورُكّز على الأخلاق الفاضلة التي منها حرمة الغشّ، وحرمة التطفيف في الميزان، وحرمة الغبن، وغير ذلك ممّا هو مدوّن في كتب الفقه.

### الحقوق الدولية

وعنى الفقه الإسلامي عناية بالغة بالحقوق الدولية وأولاهها المزيد من اهتمامه، التي كان منها:

(١) فوائد الثمرات الأحمدية في المباحث الاقتصادية: ٩١.

### وجوب الوفاء بالعقود والمعاهدات

ويجب الوفاء بالعقود والمعاهدات ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

إن الإسلام اعتبر العقود والعهود نافذة لا سبيل لنقضها وتبديلها حتى مع المشركين ، سواء في ذلك ما يتعلق بحالة الحرب أو السلم ، ومن المؤسف في هذه العصور أن العهود والعقود قد نقضت ، وصار المصدر للقوة والقدرة ، فالدولة القوية هي التي تفرض إرادتها المنافية للعدل والحق ، وتضفي عليها الصفة الشرعية ، ولم يكن للأمم المتحدة من نفوذ ، وأقصى ما تستطيعه هو الضغط الأدبي على الدول الكبرى التي تنكث بعهودها ومواثيقها.

### الحقوق الإنسانية

وتضمن الفقه الإسلامي كوكبة من الحقوق الإنسانية وألزم بمراعاتها ، فقد حرم في حال الحرب المثلة والغدر وقتل الأطفال والنساء والشيخوخ ، وكل من هو عاجز عن القتال ، كما حرم عمليات التخريب والتدمير كحرق النخل وقطع الشجر وقتل الدواب وغير ذلك ، اللهم إلا أن يتوقف على ذلك نصر الجيش الإسلامي فيباح ذلك ، ومن الحقوق الإنسانية التي أسسها الإسلام هو الأخذ بالسلم إن دعي المسلمون إليها ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ <sup>(٤)</sup> ، وقال

(١) الإسراء : ٣٤ .

(٢) النحل : ٩١ .

(٣) المائدة : ١ .

(٤) الأنفال : ٦١ .

تعالى : ﴿ فَإِنْ اغْتَرَزْتُمْ فَلَمْ يَمَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
لقد احتاط الإسلام كأشد ما يكون الاحتياط في الدماء إلا لعارض وضرورة كالدفاع عن بيضة الإسلام ورد الاعتداء وغير ذلك مما ذكره الفقهاء في رسائلهم.

### نظام الأسرة

وحفل الفقه الإسلامي بتشريع رائع لنظام الأسرة ، واعتبرها الخلية الأولى في بناء المجتمع الإسلامي ، فوضع لها أرصدة خلاقة من الإصلاح وكان من بنودها ما يلي :

#### أولاً : الإشادة بالمرأة

عانت المرأة في العصر الجاهلي صنوفاً من الذل والاحتقار ، فكانت سلعة رخيصة عند أولئك الأوغاد الذين طبعت نفوسهم على الغل والجهل والأنانية ، فقد حرمت من جميع الحقوق الطبيعية ، وعوملت معاملة الحيوان السائم ، ولمّا منّ الله على البشرية بعبده ورسوله محمد ﷺ أنقذها من واقعها المرير ، وأضفى عليها جميع ألوان التبجيل والتكريم ، وساوى بينها وبين الرجل في معظم الحقوق ، فمنحها حقّ التملك وحقّ التصرف في أموالها من دون إذن زوجها وأبيها ، وحق الإرث ، وأشاد بمكانتها ومنزلتها ، ونعى على الذين يحقرونها ، ولم تنل المرأة حقوقها كاملة في أي قانون أو نظام اجتماعي - قديماً وحديثاً - مثل ما نالته من الحقوق في التشريع الإسلامي .

#### ثانياً : حقّها في الزواج

وللمرأة حق اختيار الزوج بعد مراجعة أبيها ؛ لأنّه أعرف منها بشؤون الناس ، لثلا

(١) النساء : ٩٠ .

(٢) البقرة : ٢٠٨ .

تقع في شبكة رجل لا حريجة له في الدين فيحوّل حياتها إلى جحيم لا يطاق ، هذا إذا كانت بكرًا ، أمّا إذا كانت ثيبًا فلا سلطان لأبيها عليها ، ويعتبر في الزواج ما يلي :  
أ - العقد المتكوّن من الإيجاب والقبول ، وذلك بأن تقول المرأة للرجل : زوّجتك نفسي بمهر كذا ، فيقول الزوج : قبلت ، ولا يحتاج العقد أن يكون على يد أحد من رجال الدين ، وغير ذلك من التقاليد المتّبعة.

ب - ألا يكون الزوج محرّمًا عليها ، ويشترط في صحّة العقد ألا يكون الزوج محرّمًا عليها بسبب القرابة أو المصاهرة ، وغير ذلك ممّا هو مدوّن في رسائل الفقهاء.  
ج - يشترط في الزواج ذكر المهر ، فإذا لم يذكره فلا يفسد العقد ، وتستحقّ عليه مهر المثل ، أمّا المهر فهو حقّ خالص لها ، ولا يجوز لأحد أن يأخذه منها بغير إذنها.  
د - النفقة والمسكن ، وإذا تمّ الزواج فيلزم الزوج بالإنفاق على زوجته ، كما يلزم بتهيئة المسكن الملائم لها ، وعليه أن يعاشرها بالمعروف ، ويقابلها بالرحمة والمودّة واللطف والكرامة ، ولا يكون فظًّا غليظ العواطف والقلب.

### الطلاق

وإذا تعدّرت الحياة الزوجية وتعسّرت وشعر كلّ من الزوجين أنّهما عاجزان عن الاستمرار في حياتهما الزوجية فعندئذٍ يحقّ لهما أن يتّفقا على الطلاق ، وبالرغم من كراهية الإسلام للطلاق ، وأنّه أبغض الحلال إلى الله ، وأنّه يهتز منه العرش ، إلّا أنّه قد يكون الحلّ الوحيد لإنهاء حياة زوجية فاشلة ، وقد ذكر الفقهاء شروطاً للطلاق ، منها : أن تكون الزوجة في حال طهرها من الحيض ، وألا تكون قد قاربها فيه ، ومنها : أن يقع الطلاق أمام شاهدين عدلين ، وغير ذلك. وقد عرض الفقهاء إلى أنواع الطلاق وما يتعلّق به من بحوث ، ولسنا بصدد عرضها.

### الإرث

وترث المرأة كما يرث الرجل ، إلّا أنّ سهمها نصف سهم الرجل ، وليس في ذلك

غضاضة عليها ، وإثماً لقيام الرجل بالإنفاق عليها وعلى أطفالها ، فإنّ ذلك حقّ من حقوقها الإلزامية.

أمّا إرثها فهو جبري بحكم الإسلام لا بإرادة المورث ، فليس له من سبيل لمنعها وحرمانها من حقّ الإرث ، وإن كان الرجل يستطيع في حياته من التصرف بجميع أمواله .

ومن الجدير بالذكر أنّ الرجل في حال مرضه الذي توفي فيه إذا طلق زوجته لحرمانها من الميراث فإنّه لا أثر لطلاقه ، وترث الثمن إن كانت عندها أولاد منه أو الربع إن لم يكن عنده أولاد.

وعلى أي حال فإنّ الإسلام قد أنقذ المرأة من وضعها القاسي الذي كانت عليه قبل التشريع الإسلامي ، وقد أعجب عميد جامعة جنيف بما حقّقه الإسلام من الحقوق الرائعة للمرأة بقوله : إنّ ما حقّقه محمّد كافٍ لأن يضمن له اسماً لا ينسى بالنسبة بين المصلحين إلى عصره<sup>(١)</sup>.

إنّ الفقه الإسلامي في تشريعاته المشرقة لنظام الأسرة قد أقام صرحاً لبناء المجتمع الإسلامي ، وأوجد صيانة لترابط الأسرة ، وقد عرضنا لذلك بصورة موضوعية وشاملة في كتابنا (نظام الأسرة في الإسلام).

### الحقوق الجنائية

أقام الإسلام الحقوق الجنائية على أسس العدل ، وذلك لصيانة الأمن الداخلي ، وتأديب الفاعل ، وقطع دابر الجريمة ، وقد خصّصت الشريعة العدوان على النفس بعقوبة الإعدام ، فأوجب قتل القاتل المتعمّد إذا أصر أولياء المقتول على طلب القصاص ، وقد اعتبره الإسلام من الحقوق الذاتية لهم ، اللهمّ إلا إذا رضوا لدية ، وقد شدّد فيها الإسلام وتؤخذ من مال الجاني إذا كان عمداً ، ومن أسرته إذا



كان خطأً ، وأما الجرائم التي لم ينصّ الإسلام على مقدار عقوبتها فإنّها تسمّى بعقوبة التعزير ، ويفوّض تقديرها إلى الحكّام الشرعيّين حفظاً للحقّ العامّ في التأديب والزجر.

وبهذا العرض الموجز ينتهي بنا الحديث من بعض معالم الفقه الإسلامي الذي يضمن للإنسان حياة سعيدة متطورة بعيدة كلّ البعد عن مآثم الحياة.

### عصر النبوة

ونعود للحديث عن الدور الأوّل لتأسيس الفقه الإسلامي ، فقد كانت سلطة التشريع والقضاء والفتيا في هذا الدور بيد الرسول ﷺ ، وقد اتخذ الجامع النبوي الشريف معهداً لتدريس أصحابه علم الفقه ، كما اتخذته مركزاً لفصل الخصومات بين الناس ، وكان من بين تلك الخصومات التي رفعت له أنّ شخصاً من الأنصار قد اشترى بستاناً من سمرة بن جندب وهو من المنافقين ، وقد استثنى من البستان نخلة فكان يتعاهدها باستمرار ، فارتاب منه الأنصاري ورفع أمره إلى النبي ﷺ ، فأرسل خلفه ، فلمّا مثل أمامه طلب منه حسم النزاع ، فلم يستجب له وأصر على غيّه ، وضمن له النبي ﷺ أن يعوّضه بستاناً عن نخلته ، فأبى ، وعرض عليه مرّة أخرى أن يعطيه عوضها نخلة في الفردوس الأعلى ، فامتنع ، فغضب النبي ﷺ وقال للأنصاري : « اذهب فاقلعها وارم بها وجهه ، فإنّه لا ضرر ولا ضرار في الإسلام ».

هذه صورة رائعة من قضاء النبي ﷺ في صيانتة لحقوق الناس وضمن كرامتهم ، ومن الجدير بالذكر أنّ قول النبي ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار في الإسلام » صارت قاعدة فقهية أسموها الفقهاء قاعدة « لا ضرر ولا ضرار » ، واستمدّوا منها فروعاً كثيرة أفتوا بها لمقلّديهم.

وعلى أي حال فقد ندب القرآن الكريم المسلمين - في عهد الرسول ﷺ - إلى التفقّه في الدين ، قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا

فَمَنْهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١﴾

إنّ تعلّم الفقه ضرورة إسلامية لا غنى عنها ، يسأل عنها كل مسلم ويحاسب عليها  
 ﷺ ، ففي الحديث : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقال له : هَلَّا عملت؟ فيقول : لا أعلم ،  
 فقال له : هَلَّا تعلّمت؟ » .

### الإمام يصف قضاء النبي ﷺ

وصف الإمام أمير المؤمنين وصفاً دقيقاً وملماً بكيفية قضاء النبي ﷺ وفصله  
 خصومات بين الناس بقوله : « كان رسول الله ﷺ إذا تخاصم إليه رجلان قال للمدعى : ألك  
 حجة ، فإن أقام بيّنة يرضاها ويعرفها أنفذ الحكم على المدعى عليه ، وإن لم يكن له بيّنة حلف  
 المدعى عليه بالله ما لهذا قبله ذلك الذي ادّعه ، ولا شيء منه ، وإذا جاء بشهود لا يعرفهم بخير ولا  
 سز قال للشهود : أين قبائلكما؟ فيصفان ، أين سوقكما؟ فيصفان ، أين منزلكما؟ فيصفان ، ثم يقيم  
 الخصوم والشهود بين يديه ، ثم يأمر فيكتب أسامي المدعى والمدعى عليه والشهود ويصف ما  
 شهدوا به ، ثم يدفع ذلك إلى رجل من أصحابه الخيار ، ثم مثل ذلك إلى رجل آخر من خيار  
 أصحابه ، ثم يقول : ليذهب كلّ واحد منكما من حيث لا يشعر الآخر إلى قبائلهما وأسواقهما  
 ومحالهما والريض<sup>(٢)</sup> الذي ينزلانه فيسأل ، فيذهبان ويسألان فإن أتوا خيراً وذكروا فضلاً رجعوا  
 إلى رسول الله ﷺ فأخبراه ، أحضر الهوم الذين أثنوا عليهما ، وأحضر الشهود ، فقال : للقوم  
 الاثنين عليهما هذا فلان ابن فلان ، وهذا فلان ابن فلان أتعرفونهما ، فيقولون : نعم ، فيقول : إن  
 فلاناً وفلاناً جاءني عنكم في ما بيننا بجميل وذكر صالح فإن قالوا : نعم قضى حينئذٍ بشهادتهما  
 على المدعى عليه ، فإن رجعا بخبر سيء وثناء قبيح دعاهم فيقول : أتعرفون فلاناً وفلاناً؟  
 فيقولون : نعم ، فيقول : اقعدوا حتى يحضرا ، فيقعدون فيحضرهما فيقول للقوم : أهما هما؟  
 فيقولون : نعم ، فإذا ثبت ذلك عنده لم يهتك سترأ بشاهدين ، ولا عابهما ، ولا وبّخهما ، ولكن

(١) التوبة: ١٢٢.

(٢) الريض: البيت.

يدعو الخصوم إلى الصلح ، فلا يزال بهم حتى يصطلحوا لئلا يفتضح الشهود ، ويستر عليهم .  
 وكان رؤوفاً رحيماً عطوفاً على أمته ، فإن كان الشهود من أخلاط الناس غرباء لا يعرفون ،  
 ولا قبيلة لهما ولا سوق ولا دار أقبل على المدعى عليه فقال : ما تقول فيهما ، فإن قال : ما عرفنا  
 منهما إلا خيراً غير أنهما قد غلطا في ما شهدا عليّ ، أنفذ شهادتهما ، وإن جرحهما وطعن عليهما  
 أصلح بين الخصم وخصمه ، وأحلف المدعى عليه ، وقطع الخصومة بينهما<sup>(١)</sup> .  
 وهذا منتهى العدل في القضاء ، وقد سار وصيه باب مدينة علمه في قضائه  
 العادل على هذا المنهج .

### دور الإمام في أيام النبي ﷺ

وكان للإمام أمير المؤمنين عليه السلام دور متميز في أيام النبي ﷺ في القضاء والفتيا بين  
 المسلمين ، فكان - فيما يقول الرواة - قد عهد إليه الرسول ﷺ ليقضي بين المسلمين  
 في اليمن ، فقال له الإمام : « إنك تبعثني وأنا حديث السن لا علم لي بالقضاء » ، فأجابه  
 النبي : « انطلق فإن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك » ، قال الإمام : « فما شككت - أي بعد  
 دعاء النبي - في قضاء بين اثنين » .

يقول وكيع : أجل القضاة هو الإمام ؛ لأن رسول الله ﷺ قد استعمله في القضاء  
 في أيام حياته<sup>(٢)</sup> . وعرضت على النبي ﷺ صور من قضاء الإمام عليه السلام فأعجب بها  
 وقال : « الحمد لله الذي جعل الحكمة فينا أهل البيت »<sup>(٣)</sup> .

وهذه بعض القضايا التي أفتى بها الإمام في عهد الرسول ﷺ .

### قصة الغلام

اشترك جماعة في شراء جارية وواقعوها في طهر واحد ، فحملت بغلام ،

(١) قضاء الإمام من ذخائر الفكر الإسلامي : ٣٧ . تفسير الإمام الحسن العسكري : ٣٠٦ . وسائل

الشيعة ١٨ : ١٧٤ .

(٢) أخبار القضاة ١ : ٨٤ .

(٣) الإرشاد : ١٠٥ .

فلما وضعته ادعى كل واحد أنه ابنه ، فرفعوا أمرهم إلى الإمام عليه السلام ففرع على الغلام باسمهم ، فخرجت لأحدهم ، فألحق به الغلام ، وألزمه ثلثي الدية لصاحبيه ، وزجرهم عن مثل ذلك ، وعرض حكمه على النبي صلى الله عليه وآله فاعجب به وراح يقول : « الحمد لله الذي جعل فينا أهل البيت من يقضي على سنن داود »<sup>(١)</sup>...

إن المرجع في القضاء في مثل ذلك إلى القرعة التي تحسم النزاع ، وفي حديث : أن القرعة لكل أمر مُشكل.

### زُبَيَّة الأسد

من القضايا التي أفتى بها الإمام عليه السلام حينما كان في اليمن قصّة (زُبَيَّة الأسد) التي وقع فيها جماعة فهلكوا ، وقد روى القصّة الإمام محمد الباقر عليه السلام قال : إن زُبَيَّة حنرت لأسد فسقط فيها ، فازدحم الناس ينظرون إليه ، فوثب رجل على شفير الزبية فركلت قدمه فتعلّق بأخر ، وتعلّق الثاني بثالث ، والثالث تعلّق برابع ، فسقطوا جميعاً في الزبية فافترسهم الأسد جميعاً ، ورفع أمرهم إلى الإمام عليه السلام في شأن الدية ، فقضى مئة الرجل الأول ثلث الدية للثاني ، وعلى الثاني ثلثا الدية للثالث ، وعلى الثالث الدية الكاملة للرابع ، ونقل قضاء الإمام إلى الرسول صلى الله عليه وآله فأشاد به وقال : « لقد قضى أبو الحسن فيهم بقضاء الله عز وجل ».

ولعل الوجه في هذا القضاء أن الرجل الأول سقط بنفسه وأسقط معه الثاني ، فمئة دية له ؛ لأنّ هلاكه استند إلى نفسه ، وأمّا الثاني فكان هلاكه مستنداً إلى جذب الأول له ، وسقوط الثالث والرابع عليه ، كما كان هو السبب في سقوط الآخرين ، فكون ثلث قتله مستنداً إلى الأول فله عليه الثلث ، وأمّا الثالث فإنّ هلاكه مستند إلى نفسه وإلى جذب الرابع ، فيكون له الثلثان على الثاني ، وأمّا الرابع فإنّ هلاكه مستند إلى الثالث فيكون عليه تمام الدية<sup>(٢)</sup>.

١. عجائب أحكام وقضايا أمير المؤمنين : ٤٣.

٢. قضاء الإمام : ٣٦.

### القارصة والقامصة والواقصة

روى الشيخ المفيد: أنَّ جارية حملت على عاتقها جارية عبثاً ولهواً، فجاءت جارية أخرى فقرصت الحاملة فقمصت لقرصتها ووقعت الراكبة، فاندقت وهلكت، ورفع أمرها إلى الإمام، ففضى على القارصة بثلاث الدية، وعلى القامصة بثلاثها، وأسقط الثلث الباقي لركوب الواقصة عبثاً، وعرض هذا الحكم على النبي ﷺ فأقره<sup>(١)</sup>.

### جماعة وقع عليهم حائط

سقط جدار على جماعة فقتلهم، وكان فيهم امرأة مملوكة وأخرى حرّة، وكان للحرّة طفل وأبوه حرّ، وللجارية طفل وأبوه مملوك، ولم يعرف الطفل الحرّ من المملوك، وعرضت المسألة على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ففرع بينهما، وحكم بالحرية لمن خرج عليه سهم الحرية، وبالرقّ لمن خرج عليه سهم الرقبة، ثمّ أعتقه، وحكم بالميراث للحرّ، وعرض هذا الحكم على النبي ﷺ فأمضاه<sup>(٢)</sup>.  
هذه بعض الفتاوى التي أفتى بها الإمام عليه السلام في عهد الرسول ﷺ، وبهذا ينتهي بنا الحديث عن الدور الأوّل لتأسيس الفقه الإسلامي.

## الدور الثاني

ويبدأ هذا الدور من حين انتقال النبي ﷺ إلى الفردوس الأعلى، فقد قام الصحابة بنشر الفقه الإسلامي وتعليم المسلمين شؤون دينهم، وكانوا يفتون الناس على ضوء ما سمعوه من النبي ﷺ، وكان أبو بكر يرجع إلى الإمام عليه السلام في بعض المسائل الفقهية التي لم يهتد لحلّها، وهذه بعضها:

(١) قضاء أمير المؤمنين: ٢٨، وناقش المحقّق التستري في سند الرواية.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٣٥٤.

## في عهد أبي بكر

الحكم على شارب لا يعلم بحرمة

رُفِعَ إلى أبي بكر شخص قد شرب الخمر، فأراد أن يقيم عليه الحدّ، فقال له: إنّي شربتها ولا علم لي بتحريمها؛ لأنّي نشأت بين قوم يشربونها مستحلّين لها، فارتج على أبي بكر ولم يهتد لحكم المسألة، فأشار عليه بعض الصحابة بالرجوع إلى الإمام، فأرسل إليه مَنْ يسأله عنها، فأفتى الإمام ﷺ بإرسال الفتى مع شخصين ثقتين طوفان به على مجالس المهاجرين والأنصار يناشدانهم هل فيهم أحد تلا عليه آية تحريم وأخبره بتحريمه عن رسول الله ﷺ، فإن شهد بذلك رجلان فيقام عليه حدّ، وإن لم يشهد عليه أحد بذلك فيستتاب ويخلّى سبيله. ففعل أبو بكر فلم شهد عليه أحد فخلّى سبيله واستتابه<sup>(١)</sup>.

رجل احتلم بامرأة

روى الرواة أنّ رجلاً قال لآخر: إنّي احتلمت بأهلك، فاستشاط غضباً، واشتكى إليه عند أبي بكر، فتخيّر في الجواب، فرفع أمره إلى الإمام أمير المؤمنين ﷺ فقال: «أبي بكر: «اذهب به فأقمه في الشمس، وحدّ ظله، فإنّ الحلم مثل الظلّ...»».

.. أروع هذا الحكم، فإنّ الأحلام في شريعة الإسلام لا يترتب عليها أي أثر ..

.. وأمر الإمام بضربه حتى لا يعود لإيذاء المسلمين<sup>(٢)</sup>.

.. نعزيز المحتلم إنّما هو لأجل نقل رؤياه إلى الشخص، فإنّه إهانة له.

.. بعض فتاوى الإمام ﷺ في عهد أبي بكر.

مساء الإمام: ٣٩، نقلًا عن الإرشاد (الشيخ المفيد): ١٠٧.

.. ماب ابن شهر آشوب ٢: ٣٩٧.

### في عهد عمر

ولمّا تولّى الخلافة عمر بن الخطاب كان يرجع إلى الإمام عليه السلام في المسائل التي لم يهتدٍ لحلّها ، فيجيب عنها الإمام ، وكان عمر يبدي إعجابه بمواهب الإمام وعبقرياته ، وقد أثرت عنه في حقّه هذه الكلمات :

لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن .

لولا عليّ لهلك عمر..

لا قضية إلّا وأبو الحسن لها..

عقمت النساء أن يلدن مثل علي..

ومن بين المسائل التي لم يهتدِ عمر لحلّها وعرضها على الإمام عليه السلام :

#### ١ - اتهام امرأة بريئة بالبغاء

روى الإمام أبو عبدالله الصادق عليه السلام قال : « أتى بجارية إلى عمر بن الخطاب قد شهدت بعض النساء بأنّها بغيّة ، وكان من أمرها أنّها كانت عند رجل وكان كثير السفر فشبت الجارية ، فخافت زوجته أن يتزوجها فدعت بعض النسوة فأمسكنها وأخذت عذرتها بإصبعها ، فلمّا قدم زوجها من سفره رمت زوجته الجارية بالفاحشة ، وأقامت البيّنة من النساء على ذلك ، فرفع الرجل أمرها إلى عمر فلم يدر كيف يصنع ، وبادر بأخذ الجارية والنساء إلى الإمام ، وعرض عليه الأمر فقال الإمام لمرأة الرجل : ألك بيّنة؟ فقالت : لي شهود جاراتي يشهدن بما أقول ، فأمر الإمام بإحضارهن ، فلمّا مثلن أمامه أخرج السيف من غمده ووضع بين يديه ، ثمّ التفت إلى زوجة الرجل وقال لها : أتعرفيني؟ أنا علي بن أبي طالب ، وأمرها بأن تتكلّم بالصدق ، فأصرت على قولها ، فأمر بإخراجها إلى البيت ، ثمّ أمر بإحضار النساء فقال لبعضهنّ : أنا علي بن أبي طالب وهذا سيفي ، وقد قالت امرأة الرجل ما قالت ، ورجعت إلى الحقّ - يعني الحبس - وأعطيتهما الأمان ، فالتفت المرأة إلى عمر وقالت له : ألي الأمان على الصدق ، فطلب منها قول الصدق ، فقالت له : لا والله إنّها - أي زوجة الرجل - رأت جمالاً وهيئة فخافت فساد زوجها فسقتها المسكر ودعتنا فأمسكناها فافتضّتها بإصبعها .

فقال الإمام: الله أكبر، أنا أول من فرّق بين الشهود . ثم ألزم المرأة حدّ القذف ، وألزم النساء العقر ، وهو أربعمئة درهم ، وألزم بنفي المرأة وتزويج الرجل بالجارية <sup>(١)</sup>.

## ٢ - فتى ادّعى على امرأة أنها أمّه وهي تنكره

من بدائع فتاوى الإمام وقضائه أنّ غلاماً ادّعى على امرأة أنها أمّه وهي تنكره ، وقد رفع أمره إلى عمر ، فأمر بإحضار المرأة فجاءت ومعها أربعة وأربعون قسامة يشهدون أنّ المرأة لا تعرف الغلام وأنه مدع غشوم ظلوم يريد أن يفضحها بين أسرتها ، وأنها لم تتزوج قط ، وكان الإمام عليه السلام حاضراً فطلب منه أن يقضي بينهم فقال عمر للإمام: سبحان الله كيف لا ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: « أعلمكم علي بن أبي طالب ».

والتفت الإمام إلى المرأة فقال لها: « ألك شهود؟ ».

نعم.

وتقدّم الشهود فشهدوا أنّ المرأة ليست أمّاً للغلام ، والتفت الإمام إلى الحاضرين فقال لهم: « لأقضي اليوم بينكم بقضية هي مرضاة الربّ من فوق عرشه علّمنيها حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله ».

ثمّ خاطب المرأة قائلاً: « ألك ولي؟ ».

نعم ، هؤلاء إخوتي...

ووجه الإمام كلامه إلى إختوتها قائلاً: « أمري فيكم وفي أختكم جائز؟ ».

نعم.

« أشهد الله وأشهد من حضر من المسلمين أنّي قد زوجت هذه الجارية من هذا الغلام بأربعمئة

درهم ، والنقد من مالي... ».



وأمر الإمام قنبر بإحضار الدراهم ، فأحضرها قنبر ، وأمره بصَبِّها في يد الغلام ، وأمره الإمام بدفعها مهراً إلى المرأة ، ففعل ذلك ، ثم أمرها الإمام بالقيام معه ، وفزعت المرأة وصاحت : النار ، النار ، يابن عمِّ محمد ، تريد أن تزوّجني من ولدي هذا ، زوّجني إختوتي من رجل هجين فولدت منه هذا ، فلمّا ترعرع وشب أمروني أن أنتفي منه وطرده (١) .

### ٣ - امرأة تتهم فتى بالاعتداء على كرامتها

من روائع فتاوى الإمام وقضائه أنّ امرأة كان مغرمة بحبّ فتى من الأنصار ، وكان عفيفاً شريفاً ، فامتنع من إجابتها ، فلمّا يئست منه عمدت إلى بيضة فصبت بياضها على ثيابها وبين فخذيهام وضمت إلى عمر فقالت له : إنّ هذا الفتى أخذني في موضع وفضحني ، فهمّ عمر أن يعاقب الأنصاري ، ولمّا رأى الأنصاري ما أراداه عمر منه جعل يتوسّل إليه ويطلب منه التثبّت في الأمر ، والتفت عمر إلى الإمام ، فقال له : ما ترى يا أبا الحسن ؟ فنظر الإمام إلى البياض على ثوب المرأة فارتاب منه ، فأمر بإحضار ماء قد غلي ، فأحضره له فصبّه على موضع البياض فصار بياضاً ، واستبان الأمر للإمام وأقبل على المرأة فهذّدها فاعترفت بذلك (٢) .

### ٤ - امرأتان تنازعتا في طفل

تنازعت امرأتان في طفل ادّعته كلّ واحدة أنّه ابنها ، ودفعتا أمرهما إلى عمر فحار في الجواب ، ففرع إلى الإمام عليه السلام ، فاستدعى المرأتين ووعظهما ، فلم تستجيبا له ، فقال عليه السلام : « أتوني بمنشار » .

وأنبرت كلّ من المرأتين قائلة : ما تصنع به ؟

« أقده نصفين لكلّ واحدة نصفه... » .

(١) فروع الكافي ٧ : ٤٢٣ . وسائل الشيعة ١٨ : ٢٠٦ .

(٢) قضاء الإمام : ٤٢ .

وسكنت إحدى المرأتين وانبرت الأخرى بفزع قائلة : الله ، الله يا أبا الحسن ، إن كان لا بدّ من ذلك فقد سمحت به لها.  
ورفع الإمام صوته قائلاً : « الله أكبر هذا ابنك دونها ، لو كان ابنها لرقت عليه وأشفقت ».  
واعترفت المرأة الثانية بأنّ الولد لها دونها <sup>(١)</sup>.

#### ٥ - رجم الحامل

رفعت إلى عمر امرأة حامل قد فجرت ، فأمر برجمها ، فانبرى الإمام منكرًا لهذا الحكم قائلاً : « هب لك سبيلًا عليها ، أي سبيل لك على ما في بطنها ، والله يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ ».  
وراح عمر يبدي إعجابه بمواهب الإمام قائلاً : لا عشت لمعضلة لا يكون لها أبو الحسن ...

ثمّ التفّت إلى الإمام قائلاً : ما أصنع بها يا أبا الحسن ؟  
وبيّن الإمام له الحكم قائلاً : « احتط عليها حتى تلد فإذا ولدت ووجدت لولدها من يكفله فأقم الحدّ عليها » <sup>(٢)</sup>.

#### ٦ - قسمة مال الفيء

جاء لعمر بمال فقسّمه بين المسلمين ففضلت منه فضلة ، فاستشار أصحابه فيها ، فأشاروا عليه بأخذها لأنّها لو قسّمت بين المسلمين لم يصبهم منها إلّا اليسير ، فأنكر الإمام ذلك وقال لعمر : « أقسمها عليهم أصابهم ما أصابهم ، فاقليل والكثير في ذلك سواء... » <sup>(٣)</sup>.

وكانت هذه السياسة المشرقة في تقسيم الأموال هي التي سار عليها الإمام حينما

(١) الإرشاد (الشيخ المفيد) : ٦٨. وسائل الشيعة ١٨ : ٢١١.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٤ : ٢٨. وقريب منه في الرياض النضرة ٢ : ١٩٦.

(٣) مناقب ابن شهر آشوب ٢ : ٣٦٣ - ٣٦٤.

ألت إليه الخلافة ، فإنه لم يترك قليلاً ولا كثيراً في بيت المال إلا ورّعه على المسلمين ولم يخلف لنفسه ولا لأهله شيئاً.

#### ٧ - شراء إبل

أمر عمر وهو بمنى أنساً أن يشتري له إبلاً ، وكانت عليها أحلاس ، فأرادها عمر ، فامتنع عليه الأعرابي ، وقال : إنما بعثك الإبل مجردة ، وتحاكما عند الإمام ، فقال عليه السلام لعمر : « إن كنت شرطت عليه أفتابها فهي لك ، وإن لم تشترط فهي له » ، فقال عمر : لم أشرط ، فأمر عمر بدفع الأفتاب والأحلاس للأعرابي <sup>(١)</sup>.

هذه بعض المسائل التي تصدّى الإمام عليه السلام لحلّها في عهد عمر ، وقد ذكرنا كوكبة أخرى من المسائل أجاب عنها الإمام في كتابنا (قضاء الإمام) ، أمّا عرض هذه المسائل فهو لبيان أنّ الإمام كان هو المرجع الأعلى للفقه الإسلامي في عهد الشيخين.

#### عهد عثمان

وذكر الرواة بعض المسائل النادرة في فتاوى الإمام وقضائه في عهد عثمان ، ويعود السبب في ذلك إلى أنّ الأمويين قد أحاطوا بعثمان وأبعدوه عن الإمام ، وكان عثمان يستعين بكعب الأحبار في حلّ بعض ما يعرض عليه من المسائل . وعلى أي حال فقد عرضنا في كتابنا قضاء الإمام لبعض المسائل الفقهية التي عرضت على الإمام وأجاب عنها في عهد عثمان.

#### عهد الإمام

ولما تزيّنت الخلافة بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام تولّى بنفسه شؤون الفتيا والقضاء

بين الناس ، وكان يعهد بالقضاء إلى شريح القاضي ، ولكن كان يأمره بعرض ما يقضى عليه لثلاث يكون حكمه مجافياً لأحكام الإسلام.

وعلى أي حال فقد كان الإمام عليه السلام هو المؤسس لعلم الفقه والبانى لصروحه ، يقول ابن أبي الحديد : ( ومن العلوم التي وضع أسسها ومنهجها علم الفقه الشريف ، وهو عليه السلام أصله وأساسه ، وكلّ فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ومستفيد من فقهه ، أمّا أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وغيرهما فأخذوا من أبي حنيفة ، وأمّا أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعي ، ف يرجع فقهه إلى أبي حنيفة ، وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد عليه السلام ، وقرأ على أبيه - محمد الباقر عليه السلام ، وينتهي الأمر إلى عليّ . وأمّا مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرأي ، وقرأ ربيعة على عكرمة ، وقرأ عكرمة على عبدالله بن عباس ، وقرأ عبدالله بن عباس على علي بن أبي طالب ، وإن شئت رددت إليه الشافعي بقراءته على مالك كان لك ذلك ، فهؤلاء الفقهاء الأربعة.

وأمّا فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر ، وأمّا عمر فقد عرف كلّ أحد رجوعه إليه في كثير من المسائل التي أشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة ، وقوله : لولا عليّ لهلك عمر... وقوله : لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن ، وقوله : لا يفتين أحد في المسجد وعليّ حاضر ، فقد عرف بهذا الوجه انتهاء الفقه إليه.

وقد روت العامة والخاصة قوله عليه السلام : « أفضاكم علي » ، والقضاء هو الفقه ، فهو إذاً أفقهم ، وروى الكلّ أيضاً أنه عليه السلام قال له - وقد بعثه إلى اليمن قاضياً - : « اللهم اهد قلبه وثبت لسانه » ، قال عليه السلام : « فما شككت بعدها في قضاء بين اثنين » ، وهو عليه السلام الذي أفتى في المرأة التي وضعت لستة أشهر ، وهو الذي أفتى في الزانية ، وهو الذي قال في المنبرية : « صار ثمنها تسعاً » ، وهذه المسألة لو فكر الفرضي فكراً طويلاً لاستحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب ، فما ظنك بمن قاله بديهياً..<sup>(١)</sup>

لقد كان عليه السلام عملاق الفقه الإسلامي ، ومن السابقين لتأسيسه والواضعين لبرامجه.

## السبطان

أمّا السبطان ، وهما ريحاننا رسول الله ﷺ الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة ، فقد كان لهما دور بارز ومتميّز في الفقه الإسلامي ، وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يشيد بهما ، ويأمر المسلمين بالرجوع إليهما ، فقد قال : « يا قوم ، استنبطوا مني ومن هذين - يعني الحسن والحسين - علم ما مضى وما يكون »<sup>(١)</sup>.

ومن الجدير بالذكر أنّهما اهتمّا بتعليم الناس وهما في غصارة الصبا ، فقد روى المؤرّخون أنّهما اجتازا على شيخ لا يحسن الوضوء ، فلم يدعهما حبّ الخير للناس الذي ورثاه من جدّهما أن يتركوا الشيخ على حاله لا يحسن الوضوء ، فأحدثا نزاعاً صورياً أمامه ، وجعل كلّ منهما يقول للآخر : أنت لا تحسن الوضوء ، والتفتنا إلى الشيخ بأسلوب أدبي فقال له : « يا شيخ ، يتوضأ كلّ واحد منا أمامك ، وانظر أي الوضوءين أحسن... ».

وتوضّأ أمامه ، وجعل الشيخ يمعن في وضوئهما ، وتنّبّه إلى قصوره في وضوئه من دون أن يأنف ، وانبرى قائلاً لهما : كلاكما يا سيّدَي تحسنان الوضوء ، ولكنّ هذا الشيخ الجاهل هو الذي لا يحسن ، وقد تعلّم الآن منكما ، وتاب على أيديكما ..<sup>(٢)</sup>.

ونشير إلى دور كلّ واحد من الإمامين عليه السلام في إشاعة الفقه وتعليمه للناس.

## الإمام الحسن عليه السلام

وأجمع الرواة على أنّ الإمام الحسن عليه السلام كان من مراجع الفتيا والفقه في الإسلام ، وقد احتفت به الصحابة ورواة الحديث يسألونه عن أحكام الدين وهو يجيبهم عنها ،

(١) الصاحبى : ٨٣.

(٢) مناقب أبي حنيفة : ١ : ٢٩.

وقد تتلمذ عنده كوكبة من الصحابة وأبنائهم ، وقد ألف محمد بن سعيد الهمداني كتاباً أسماه من روى عن الحسن والحسين (١).

وكان الإمام عليه السلام إذا سئل عن مسألة شرعية أحال جوابها إلى الإمام الحسن أو الحسين عليه السلام.. ومن ذلك ما حدث به الرواة أن أعرابياً سأل أبا بكر فقال له : إني أصبت بيض نعام فشويته وأكلته وأنا محرم فما يجب عليّ؟

ولم يهتد أبو بكر إلى الجواب ، ففزع هو وعمر إلى الإمام عليه السلام وعرضاً عليه المسألة ، فقال عليه السلام للأعرابي : « سل أي الغلامين شئت » ، وأشار إلى الحسن والحسين. ووجه الأعرابي سؤاله إلى الإمام الحسن عليه السلام فأجابه عنه قائلاً : « ألك إبل؟ » . نعم.

« فاعمد إلى ما أكلت من البيض نوقاً فاضربهن في الفحول ، فما ينتج منها اهده إلى بيت الله العتيق الذي حججت إليه ».

والتفت الإمام إلى ولده الحسن فقال له : « يا بني ، إن من النوق السلوب وما يزلق » (٢). فأجابه الإمام الحسن : « يا أبة ، إن يكن من النوق السلوب وما يزلق ، فإن من البيض ما يمرق » (٣).

وكان جواب الإمام الحسن عليه السلام على وفق ما قرّر في الفقه في كفارة الإحرام ، والتفت الإمام عليه السلام إلى الحاضرين فأشاد بمواهب ولده قائلاً : « إن الذي فهم هذا الغلام هو الذي فهم سليمان بن داود » (٤).

ويقول الرواة : إن الإمام الحسن عليه السلام أفتى في مسألة فراجع القوم الإمام أمير

(١) النجاشي : ٧٣.

(٢) السلوب : الناقة التي مات ولدها أو ألقته غير تام. الزلوق : الناقة التي أسقطت ولدها غير تام.

(٣) يمرق : البيضة إذا فدت.

(٤) مناقب ابن شهر آشوب ٢ : ١٥٠. حياة الإمام الحسن ١ : ١٩٠.

المؤمنين ﷺ وأخبروه بقضاء ولده فأقره وقال : « لو أنني المسؤول ما كان عندي فيها بأكثر مما قال ابني »<sup>(١)</sup>.

لقد كان الإمام الحسن ﷺ من عمدة الفتيا في الإسلام ، وكان مرجعاً للعالم الإسلامي في شؤونه الدينية.

### الإمام الحسين ﷺ

أمّا الإمام الحسين سبط رسول الله ﷺ فهو من منابع المشرقة للفقه الإسلامي ، وإليه رجع كبار الصحابة في مسائل الدين ، وكان ممن رجع إليه عبدالله بن عمر ، فقد استفتاه عن المسائل الآتية :

السؤال الأول : يا أبا عبدالله ، ما تقول في فكاك الأسير على من هو ؟

وأجابه الإمام : « على القوم الذين عاهدتهم أو قاتل معهم ».

السؤال الثاني : يا أبا عبدالله ، متى يجب عطاء الصبي ؟

جواب الإمام : « إذا استهل وجب له عطاؤه ورزقه ».

السؤال الثالث : ما هو حكم الشرب قائماً ؟

جواب الإمام : دعا الإمام ﷺ بلفحة - أي ناقة - فحلبت وشرب قائماً ، وناوله<sup>(٢)</sup>.

لقد كان المسلمون يرجعون إليه في مسائل الحلال والحرام ، ويأخذون منه أحكام الإسلام وآداب الشريعة ، كما كانوا يرجعون إلى أبيه باب مدينة علم النبي ﷺ. وقد روى عنه وانتهل من ندير علمه جمع كبير من أعلام الصحابة وغيرهم كان من أبرزهم ولده سيّد العابدين وإمام المتّقين زين العابدين ﷺ<sup>(٣)</sup> ، وولده الإمام محمّد الباقر ، والفرزدق وغيرهم<sup>(٤)</sup>.

(١) حياة الإمام الحسن ١ : ١٩٠.

(٢) الاستيعاب المطبوع على هامش الإصابة : ٣٩٨ ، القسم الأول.

(٣) الجرح والتعديل ؛ القسم الثاني من المجلّد الأول : ٥٥.

(٤) تهذيب التهذيب ٢ : ٣٤٥.

وقد ألف أبو بشير محمد بن أحمد الدولابي المتوفى سنة (٣٢٠هـ) مسنداً له ذكر فيه رواياته وما أثر عنه في أحكام الشريعة وآداب الدين ، وقد أدرجه في غصون كتابه (الذرية الطاهرة)<sup>(١)</sup> ، وقد ذكرنا بعض بنوده في كتابنا (حياة الإمام الحسين عليه السلام الجزء الأول).

وعلى أي حال فقد كان أبو الشهداء عليه السلام المرجع الأعلى في الفتيا للعالم الإسلامي ، وقد احتف به الصحابة والرواة وهم يستفتونه ويأخذون منه أحكام الدين ، ولما هاجر عليه السلام إلى مكة حينما رفض بيعة الفاجر يزيد بن معاوية واتخذها مقراً له توافدت عليه الحجاج والمعتزمون وغيرهم وهم يسألونه عن أحكام الحج وغيره مما يتصل بشؤونهم الدينية ، وهو يجيبهم عنها ، وقد عرضنا لذلك بالتفصيل في كتابنا (حياة الإمام الحسين عليه السلام).

#### المدونون للفقه في هذا الدور

تصدى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأعلام شيعته إلى تدوين الفقه الإسلامي وتسجيل أحكام الدين ، فقد ألف الإمام عليه السلام في الديات كتاباً سماه بالصحيفة ، وقد أورده ابن سعد في آخر كتابه المعروف بـ (الجامع) ، وكان البخاري ومسلم يذكران هذه الصحيفة ويرويان عنها في عدة مواضع من صحيحهما ، ومما رواه عنها ما أخرجه عن الأعمش ، عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه ، قال : قال علي عليه السلام : « ما عندنا من كتاب نقرأه إلا كتاب الله تعالى غير هذه الصحيفة » ، قال : فأخرجها فإذا فيها شيء من الجراحات وأسنان الإبل ، قال : « وفيها المدينة حرم ما بين غير إلى ثور ، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »<sup>(٢)</sup>.

(١) من مخطوطات المكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة في تونس ، توجد منه نسخة مصورة في مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) صحيح البخاري ٤ : ١١١ . صحيح مسلم ٢ : ٥٢٣ .



وروى طارق بن شهاب قال : شهدت علياً عليه السلام وهو يقول على المنبر : « والله ما عندنا كتاب نقرؤه عليكم إلا كتاب الله تعالى وهذه الصحيفة - وكانت معلقة بسيفه - أخذتها من رسول الله ﷺ » (١).

وروى الصفار بسنده عن عبد الملك قال : دعا أبو جعفر بكتاب عليّ فجاء به ولده جعفر عليه السلام مثل فخذ الرجل مطوياً ، فإذا فيه : « أن النساء ليس لهنّ من عقار الرجل إذا توفي عنهنّ شيء » ، فقال أبو جعفر : « هذا والله خطّ عليّ وإملاء رسول الله ﷺ » ...

وذكر ابن شهر آشوب : أن أول من صنّف في الإسلام هو عليّ بن أبي طالب وسلمان الفارسي وأبو ذرّ.

وممن ألّف في الفقه - في هذا الدور - أبو رافع مولى رسول الله ﷺ ، وهو صاحب بيت المال في أيام حكومة الإمام عليه السلام ، وكان من خاصّة أوليائه .

قال النجاشي : ( كان كاتباً للإمام ، وحفظ كثيراً من علومه وجمع كتاباً في فنون الفقه كالوضوء والصلاة وسائر الأبواب ) ، تفقّه على يد الإمام أمير المؤمنين وجمع ما حفظه في أيامه ، وأوله باب الوضوء جاء فيه : إذا توضّأ أحدكم فليبدأ باليمين قبل الشمال .

قال النجاشي : وكانوا - أي الشيعة - يعظّمون هذا الكتاب ، فهو أول من صنّف فيه من الشيعة ، وممن ألّف في الفقه في هذا الدور من الشيعة ربيعة بن سميح ، فقد ألّف كتاباً في زكاة النعم من حديث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله ﷺ . وهؤلاء بعض المؤلّفين في هذا الدور .

### الدور الثالث

ويبدأ هذا الدور بالإمام زين العابدين وسيّد الساجدين سلام الله عليه ، فقد كان له دور مهمّ جدّاً في تأسيس الفقه الإسلامي وإشاعته بين المسلمين .

لقد رأى الإمام زين العابدين عليه السلام الحكومة الأموية جادة في محاربة الإسلام وإقبار مثله ومبادئه ، وكانت تدعو إلى حفظ الشعر الجاهلي ، وإهمال حفظ القرآن والسنة النبوية ، وبلغ من عظيم حقدّها على الإسلام أنّها فرضت على المسلمين سبّ العترة الطاهرة والبراءة منهم ، وقد أوعزت بذلك إلى أئمة الجماعة والجمعة ، وإلى معاهد التعليم ، وجعلت ذلك جزءاً من العقيدة الإسلامية ، كما أخذت تنكّل بشيعة أهل البيت كأفطع وأقسى ما يكون التنكيل.

وقد شكّت الحركة الفقهية ، ولم يعد لها أي ظلّ يذكر في حياة المسلمين ، فانبرى الإمام زين العابدين عليه السلام إلى نشر الفقه ، وذلك عن طريق شراء الموالى وعتقهم وضمّهم إليه ، وكان يتولّى تدريسهم الفقه ، وتعليمهم أحكام الدين ، وكان معظم فقهاء الأمصار الإسلامية من الذين اعتقهم وتلمذوا عنده..

ويقول الرواة: إنّّه إذا أراد السفر إلى بيت الله احتفّ به ألف فقيه وهم يسجلون ما يفتي به وما يدلّ به من غرر الحكم والآداب ، وقد ترجمنا من تلاميذه وممن روى عنه (١٦٤) رايّاً في كتابنا (حياة الإمام زين العابدين عليه السلام) ، وكانوا يشكلون الهيئة العلمية في ذلك العصر.

لقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام من عمالقة الفقه الإسلامي ومن أساطين هذا العلم ، ويقول الرواة: إنّّه كان يشبه جدّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في قدرته على الإحاطة بالمسائل الفقهية من جميع جوانبها ، والتفريع عليها<sup>(١)</sup>.

وكان الإمام زين العابدين عليه السلام المرجع الوحيد الذي يرجع إليه الفقهاء والعلماء في مهام المسائل الدينية ، وكان من بينهم الزهري ، وهو من أجلاء فقهاء المدينة ، فكان يرجع إليه في مهام الأحكام الشرعية<sup>(٢)</sup> ، وقد وفد عليه مع كوكبة من الفقهاء فقال الزهري للإمام: تذاكرنا الصوم فأجمع رأيي ورأي أصحابي أنّه ليس من الصوم. «اجب إلّا شهر رمضان..»

(١) وسائل الشيعة ٥: ٥١٩.

(٢) حياة الإمام زين العابدين ٢: ٣٨.

فأنكر الإمام عليه السلام ذلك وقال لهم : « ليس كما قلتم ، الصوم على أربعين وجهاً ، عشرة منها واجبة كوجوب شهر رمضان ، وعشرة منها صومهنّ حرام ، وأربعة عشر وجهاً صيامهنّ بالخيار ، إن شاء صام وإن شاء أفطر ، وصوم الإذن على ثلاثة أوجه ، وصوم التأدّب ، وصوم الإباحة ، وصوم السفر ، والمرض... ».

وبهر الفقهاء من سعة علم الإمام وإحاطته بالأحكام الشرعية ، وطلبوا منه بيان تلك الوجوه ، فأنبرى عليه السلام لبيانها فقال : « أمّا الواجب فصيام شهر رمضان ، وصيام شهرين متتابعين لمن أفطر يوماً من شهر رمضان متعمداً ، وصيام شهرين في قتل الخطأ لمن لم يجد العتق ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِينُ مُسْلِمْ إِلَى أَهْلِهِ - إِلَى قَوْلِهِ - : فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ <sup>(١)</sup> .

وصيام شهرين متتابعين في كفارة لمن لم يجد العتق ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَمْ تُوْعْظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ \* فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وصيام ثلاثة أيام في كفارة اليمين واجب لمن لم يجد له الإطعام ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارُهُ أَيْمَانُكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ <sup>(٣)</sup> ، كلّ ذلك تتابع وليس بمتفرّق .  
وصيام أذى الحلق - حلق الرأس - واجب ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَدِيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ ﴾ <sup>(٤)</sup> ، وصاحبها بالخيار بين صيام ثلاثة أيام أو صدقة أو نسك .

وصوم دم المتعة واجب لمن لم يجد الهدى ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ <sup>(٥)</sup> .

(١) النساء : ٩٢ .

(٢) المجادلة : ٣ و ٤ .

(٣) المائدة : ٨٩ .

(٤) البقرة : ١٩٦ .

(٥) البقرة : ١٩٦ .

وصوم جزاء الصيد واجب ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا فِجْزَاءٍ مِثْلُ مَا قُتِلَ مِنَ النِّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا بَالِغُ الْكَفَّةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ <sup>(١)</sup> .  
ثم قال ﷺ : « أوتدري كيف يكون عدل ذلك صياماً يا زهري ؟ » .  
فقال : لا أدري .

قال ﷺ : « تقوم الصيد قيمة ثم تنفض تلك القيمة على البر ، ثم يكال ذلك البر أصواغاً فيصوم لكل نصف صاع يوماً .

وصوم النذر واجب ، وصوم الاعتكاف واجب <sup>(٢)</sup> وأما الصوم الحرام فصوم يوم الفطر ، ويوم الأضحى ، وثلاثة أيام التشريق <sup>(٣)</sup> ، وصوم يوم الشك <sup>(٤)</sup> ، أمرنا به ونهينا عنه : أمرنا أن نصومه من شعبان ، ونهينا أن ينفرد الرجل بصيامه في اليوم الذي يشك فيه الناس .  
والتفت الزهري إلى الإمام قائلًا : جعلت فداك ، فإن لم يكن صام من شعبان شيئاً كيف يصنع ؟

قال ﷺ : « ينوي ليلة الشك أنه صائم من شعبان ، فإن كان من شهر رمضان أجراً عنه ، وإن كان من شعبان لم يضر » .

وأشكل الزهري على الإمام قائلًا : كيف يجزي صوم تطوع عن فريضة ؟  
فأجابه الإمام : « لو أن رجلاً صام يوماً من شهر رمضان تطوعاً وهو لا يدري ولا يعلم أنه من شهر رمضان ، ثم علم بعد ذلك أجراً عنه ؛ لأن القرض إنما وقع على اليوم بعينه » .  
ثم استأنف الإمام حديثه في بيان أقسام الصوم قائلًا : « وصوم الوصال حرام ، وصوم الصمت حرام ، وصوم النذر للمعصية حرام ، وصوم الدهر حرام . وأما الصوم الذي صار صاحبه فيه

(١) المائدة : ٩٥ .

(٢) صوم الاعتكاف إنما يجب بعد مضي يومين ، فيتعين صوم يوم ثالث ، وكذلك يجب صوم ثلاثة أيام من الاعتكاف بالنذر وشبهه .

(٣) أيام التشريق : وهي أيام منى ، وهي الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر بعد يوم النحر .

(٤) يحرم صوم يوم الشك إذا نوى به من رمضان .

٦٠ ..... الفقه الإسلامي : تأسيسه - أصالته - مداركه

بالخيار فصوم يوم الجمعة والخميس والاثنين ، وصوم الأيام البيض ، وصوم ستة أيام من شوال بعد شهر رمضان ، ويوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، كل ذلك صاحبه فيه بالخيار ، إن شاء صام وإن شاء أفطر .

وأما صوم الإذن ، فإن المرأة لا تصوم تطوعاً إلا بإذن زوجها ، والعبد لا يصوم تطوعاً إلا بإذن سيده ، والضيف لا يصوم تطوعاً إلا بإذن مضيفه ، قال رسول الله ﷺ : فمن نزل على قوم فلا يصوم تطوعاً إلا بأذنهم .

وأما صوم التأديب ، فإنه يأمر بالصبي إذا راهق تأديباً ، وليس بفرض ، وكذلك من أفطر لعله من أول النهار ثم قوي بعد ذلك أمر بالإمساك بقية يومه تأديباً وليس بفرض ، وكذلك المسافر إذا أكل من أول النهار ثم قدم أهله أمر بالإمساك بقية يومه تأديباً وليس فرضاً . وأما صوم الإباحة فمن أكل أو شرب أو تقيأ من غير عمد أباح الله ذلك وأجزأ عنه صومه<sup>(١)</sup> .

وأما صوم السفر والمرض ، فإن العامة اختلفت فيه ، فقال قوم : يصوم ، وقال قوم : لا يصوم ، وقال قوم : إن شاء صام وإن شاء أفطر ، وأما نحن فنقول : يفطر في الحالتين جميعاً ، فإن صام في السفر أو في حال المرض فعليه القضاء في ذلك ؛ لأن الله عز وجل يقول : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾<sup>(٢)</sup> »<sup>(٣)</sup> .

وانتهى هذا البحث الفقهي الذي ألقاه الإمام على العلماء والفقهاء ، وقد كشف عن مدى إحاطة الإمام وسعة مداركه بفروع الفقه ، فقد فرّع على الصوم هذه الفروع التي غنل عنها العلماء ، ومن الجدير بالذكر أنّ فقهاء الإمامية استندوا إلى هذه الرواية في فتاواهم بأحكام الصوم<sup>(٤)</sup> ، وقد ذكرنا عرضاً لبعض المسائل الفقهية التي أدلى بها الإمام عليه السلام في كتابنا ( حياة الإمام زين العابدين عليه السلام ) .

(١) تناول المفطر في مثل هذه الأمور لا يضر إذا كان نسياناً .

(٢) البقرة : ١٨٤ .

(٣) الخصال : ٥٠١ - ٥٠٤ . فروع الكافي : ١ : ١٨٥ . المقنعة : ٥٨ . تفسير القمي : ١٧٢ - ١٧٥ .

التهذيب : ١ : ٤٣٥ .

(٤) حياة الإمام زين العابدين : ٢ : ٤٢ .

## الإمام أبو جعفر الباقر

وجهد الإمام محمد الباقر عليه السلام على نشر الفقه الإسلامي وإشاعته بين المسلمين في وقت كان المجتمع الإسلامي غارقاً في الأحداث السياسية والفتن الداخلية ، فقد أهملت الحكومات القائمة في تلك العصور الشؤون الدينية ، ولم يعد لها أي ظل على حياة المسلمين ، وقد أكد ذلك الدكتور علي حسن ، قال : وقد أدى تبّعنا للنصوص التاريخية إلى أمثلة كثيرة تدل على هذه الظاهرة - أي إهمال الشؤون الدينية - التي كانت تسود القرن الأول ، سواء لدى الحكّام أو العلماء أو الشعب ، ونعني بها عدم المعرفة بشؤون الدين والتأرجح وعدم الجزم والتمطع فيها حتى العبادات ، فمن ذلك ما روي أنّ ابن عباس خطب في آخر رمضان على منبر البصرة فقال : اخرجوا صدقة صومكم ، فكان الناس لا يعلمون ، فقال : من هاهنا من أهل المدينة ، فقاموا فقال : قوموا إلى إخوانكم فعلموهم فإنهم لا يعلمون من زكاة الفطرة الواجبة شيئاً<sup>(١)</sup> ، ممّا يدل على أنّ أهل البلاد الإسلامية لم يكونوا يعرفون شؤون دينهم معرفة مفصلة ، وقد كان يوجد في بلاد الشام من لا يعرف عدد الصلوات المفروضة فراحوا يسألون الصحابة عن ذلك<sup>(٢)</sup> .

ولكن الحقيقة هو أنّه في أثناء عصر بني أمية الذين كانوا لا يهتمون كثيراً بأمر الدين كان الشعب في الواقع قليل الفهم والمعرفة للفقه ومسائل الدين... وقام الإمام محمد الباقر عليه السلام في تلك الفترات المظلمة بدور مشرق في نشر الفقه وبيان أحكام الدين ، وقد احتف به العلماء والفقهاء وغيرهم من رواد المعرفة وهو يلقي عليهم محاضراته القيّمة في بهو الجامع النبوي ، وقد تناولت الحديث والفقه والتفسير ، علم الكلام والفلسفة والجغرافيا والطب وغيرها... وقد استمع الوليد الأموي حينما

(١) الإحكام في أصول الأحكام (ابن حزم) ٢ : ٦٣١ .

(٢) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي : ١١٠ .

كان ملكاً إلى بعض محاضرات الإمام التي تناولت بعض شؤون الكون فسأله عن هذا العلم الذي تحاضر فيه فقال عليه السلام : «إنه علم يتحدث عن الأرض والسماء والشمس والنجوم»<sup>(١)</sup>.

وعلى أي حال فقد كان الإمام الرائد للحركات العلمية في عصره وهو المعلم الأول في مدينة جدّه عليه السلام ، وقد روى عنه معالم الدين بقايا الصحابة ووجوه التابعين ورؤساء فقهاء المسلمين<sup>(٢)</sup> ، وقال محمد بن مسلم وهو من كبار العلماء في عصره : ما شجرني في قلبي شيء قط إلا سألت عنه أبا جعفر عليه السلام حتى سألته عن ثلاثين ألف حديث..<sup>(٣)</sup>.

وهكذا غيره روى آلاف الأحاديث عنه ، ومعظم فقه أهل البيت عليهم السلام يستند إليه وإلى ولده الإمام المعظم جعفر الصادق عليه السلام ، فهما قد بنيا صرح الفقه الإمامي وأقاما قواعده وأحكامه ، وكان من بين بعض العلوم التي وضعها :

### علم أصول الفقه

من أهم العلوم التي يتوقف عليها الاجتهاد علم الأصول ، فإنه لا يحصل المجتهد على ملكة الاجتهاد من دون الاجتهاد في هذا العلم<sup>(٤)</sup> ، وقد وضع الإمام محمد الباقر عليه السلام أسس هذا العلم وأرسى قواعده.

يقول السيد حسن الصدر: إن أول من فتح بابَه - أي باب علم الأصول - وفتح مسائله هو باقر العلوم الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام ، وبعده ابنه أبو عبد الله الصادق عليه السلام ، وقد أمليا فيه على جماعة من تلامذتهما قواعده ومسائله ،

(١) الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب: ١١١.

(٢) المناقب ٤: ١٩٥.

(٣) الاختصاص: ٢٠١. رجال الكشي: ١٠٩.

(٤) كفاية الأصول، الجزء الثاني (باب الاجتهاد والتقليد): ٤٦٢.

جمعوا من ذلك مسائل ربّتها المتأخرون على ترتيب مباحثه ككتاب (أصول آل الرسول)، وكتاب (الفصول المهمة في أصول الأئمة) وكتاب (الأصول الأصيلية) كلّها بروايات الثقات مسندة متصلة الإسناد إلى أهل البيت عليهم السلام <sup>(١)</sup>.  
ونعرض لبعض القواعد الأصولية التي أسسها الإمام عليه السلام أو نقلها عن أجداده الطاهرين، وإلى بعضها يرجع فقهاء الإمامية عند عدم النصّ على الحكم الشرعي، وكثير من هذه القواعد فقهية إلا أنّ علماء الأصول أدرجوها في علم الأصول استطراداً، ونحن نذكرها كذلك <sup>(٢)</sup>.

#### الاستصحاب

وهو من أهمّ مباحث الأصول العملية الأربعة التي يرجع إليها الشاك في مقام العمل، أمّا سبب شكّه فيرجع إلى فقدان النصّ أو إجماله، أو إلى تعارض النصوص وتساقطها، وذلك فيما إذا تكافأت، ولم يكن أحدها أرجح من الآخر، ولا يجري الاستصحاب حتى يتوقّف في المستصحب حكماً أو موضوعاً أمران: وهما اليقين السابق والشكّ اللاحق.

وقد نصّ الإمام عليه السلام على حجّيته والرجوع إليه في كثير من المسائل التي سئل عنها خصوصاً في أبواب الشكّ في الصلاة، وقد ذكرت تلك النصوص في (وسائل الشيعة) و (جواهر الكلام) و (الحدائق الناضرة) وغيرها من الموسوعات الفقهية، وذكرت كتب الأصول أنواع الاستصحاب، وما هو حجّة منها وما هو غير حجّة منها.

#### قاعدة التجاوز

وتعني هذه القاعدة الحكم بوجود الشيء المشكوك بعد الدخول في غيره <sup>(٣)</sup>،

(١) الشيعة وفنون الإسلام: ٩٥.

(٢) حياة الإمام محمد الباقر عليه السلام: ٢: ٢٢٧.

(٣) حقائق الأصول: ٢: ٥٤٧.



كما إذا شك في القراءة بعد الدخول في الركوع ، وقد تضافرت الأخبار عن الإمام الباقر عليه السلام ، وكذلك عن ولده الإمام الصادق بعدم العناية بالشك والمضي في الصلاة<sup>(١)</sup>.

### قاعدة الفراغ

وهي الحكم بصحة الفعل الموجود في ظرف الشك في صحته<sup>(٢)</sup> ، وقد استفيدت هذه القاعدة التي أفتى الفقهاء على ضوءها من صحيحة محمد بن مسلم عن الإمام محمد الباقر عليه السلام جاء فيها : « كلما شككت فيه بعد ما تفرغ من صلاتك فامض ولا تعد »<sup>(٣)</sup>.

وفي موثق محمد بن مسلم عنه عليه السلام : « كلما شككت فيه مما قد مضى فامضه كما هو »<sup>(٤)</sup> ، والصحيحة والموثقة صريحتان في عدم الاعتناء بالشك بعد الفراغ من العمل.

### قاعدة نفي الضرر

وهذه القاعدة الفقهية قد أسسها النبي صلى الله عليه وآله ، وكان الإمام أبو جعفر عليه السلام أحد رواتها ، فقد قال عليه السلام لزارة : « إن سمرة بن جندب<sup>(٥)</sup> كان له عذق في حائط لرجل من

(١) حياة الإمام محمد الباقر عليه السلام ٢ : ٢٢٧.

(٢) حقائق الأصول ٢ : ٥٤٧.

(٣) مستمسك العروة الوثقى ٧ : ٣٤٩.

(٤) المصدر السابق : ٣٥٠.

(٥) سمرة بن جندب صحابي كذاب منافق ، من سماسة معاوية ومن أعوانه على نشر الظلم والجور ، استعمله زياد بن أبيه والياً على البصرة فأسرف في قتل الأبرياء ، فقتل ثمانية آلاف . وفي تاريخ الطبري (٦ : ٦٣٢) : أن أبا سوار العدوي قال : قتل سمرة من قومي في غداة سبعة وأربعين رجلاً ممن جمع القرآن. وقد تحدثنا عن جرائمه بصورة مفصلة في كتابنا حياة الإمام الحسن (٢ : ١٨٦ - ١٩١).

الأنصار، وكان منزل الأنصاري بباب البستان، وكان سمرة يمرّ إلى نخلته ولا يستأذن إذا جاء، فجاء الأنصاري إلى النبي ﷺ فشكى إليه، فأرسل رسول الله ﷺ خلفه وأخبره بقول الأنصاري وقال له: إذا أردت الدخول فاستأذن، فأبى، فلما أبى ساومه حتى بلغ من الثمن ما شاء الله، فأبى أن يبيعه، فقال ﷺ: لك بها عذق في الجنة، فأبى أن يقبل، فقال رسول الله ﷺ للأنصاري: اذهب فاقبلها، وارم بها إليه فإنه لا ضرر ولا ضرار»<sup>(١)</sup>.

### علاج تعارض الأخبار

أثرت عن أئمة الهدى ﷺ كوكبة من الأحاديث متنافرة في مدلولها بين النفي والإيجاب في موضوع واحد، ومن المعلوم استحالة ذلك في أحاديث الأئمة الطاهرين ﷺ الذين يحكون وينقلون أحكام الله تعالى لعباده، ومما لا شك فيه أن الله تعالى في كل واقعة حكماً واحداً يصيبه من يصيبه ويخطئه من يخطئه، فالتناقض في شريعة الله تعالى مستحيل، أما سبب هذا التناقض في بعض الأخبار فيستند - في أكبر الظن - إلى أحد أمرين وهما:

الأول: صدور أحد الخبرين تقيّة.

فقد ابتلي أئمة أهل البيت ﷺ بفراعنة زمانهم الذين جهدوا على ظلمهم والتنكيل بهم وبشيعتهم، وصبّوا عليهم وابلاً من العذاب الأليم، فسملت العيون وقطعت الألسن، وأسقطت شهاداتهم في المحاكم، وهدمت دورهم، وأحاطوا مجالس الأئمة بمباحثهم وأمنهم، وأوعزت لبعض عملائهم بسؤالهم عن حكم شرعي لعلّه يكون مخالفاً لما يفتي به بعض زعماء المذاهب فيتخذون من ذلك وسيلة لإراقة دمائهم، فإذا سئلوا عن مسألة وشكّوا في أمر السائل، أو كان في المجلس من يخافون ويحذرون منه أفتوا بالمسألة على وفق رأي الجمهور، ولم

(١) تحدّثنا عن هذه القاعدة في كتابنا إيضاح الكفاية ٣: ٤٣٩ (مخطوط).

تكن فتياهم بصدد بيان الحكم الواقعي ، وإثما يحلّون ما أفتى به غيرهم حذراً من التنكيل بهم.

الثاني: أن يكون أحد الخبرين من الموضوعات عليهم .

فقد شاع في تلك العصور وضع الأحاديث والمتاجرة بها ، وغير ذلك من الأغراض السياسية.

وكانت معرفة الخبر الصحيح وتمييزه عن غيره في مجالات التعارض تهمّ المتحرّجين في دينهم من علماء الشيعة ورواتهم فحفّوا إلى الإمام أبي جعفر عليه السلام طالبين وضع البرامج العلاجية لذلك ، فأرشدهم الإمام إلى هذه الأمور وهي :

١ - الشهرة: ونعني بها الشهرة في الرواية لا في الفتوى ، فإذا كان أحد الخبرين المتعارضين مشهوراً بين الرواة فيؤخذ به ويطرح الشاذّ النادر ، قال عليه السلام لزراعة : « يا زراة ، خذ بما اشتهر بين أصحابك ، ودع الشاذّ النادر... »<sup>(١)</sup> ، والخبر صريح في طرح الخبر الشاذّ ، والأخذ بالخبر المشهور.

٢ - موافقة الكتاب والسنة: والقاعدة الثانية التي وضعها الإمام أبو جعفر عليه السلام لعلاج التعارض هي: عرض الخبرين المتعارضين على الكتاب والسنة ، فإن اتّفق أحد الخبرين مع الكتاب والسنة فيؤخذ به ويطرح الآخر ، قال عليه السلام لبعض أصحابه : « لا تصدق علينا إلا بما يوافق كتاب الله وسنة نبيه ».

٣ - الترجيح بالصفات: الطريق الثالث لمعرفة الخبر الصحيح من غيره هو النظر في صفات الراوي من حيث العدالة والوثاقة والصدق ، فإذا توقّرت فيه هذه الصفات فيقدّم خبره على غيره ممّن لا تتوقّر فيه هذه الصفات ، وقد نصّ الإمام أبو جعفر عليه السلام على ذلك في حديثه مع زراة فقد قال له : « خذ بما يقوله أعدلهما عندك وأوثقهما ».

إنّ عدالة الراوي ووثاقته من موجبات الترجيح لأحد الخبرين المتعارضين ،

(١) حياة الإمام محمّد الباقر عليه السلام : ١ : ٢٣٠ ، نقلاً عن عوالي اللآلي.

وبهذا العرض الموجز عن دور الإمام أبي جعفر عليه السلام في تأسيس الفقه الإسلامي ينتهي بنا الحديث عن ذلك.

### مدرسة التابعين

وكان من مظاهر نشاط الحركة الفقهية في يثرب أن شكّلت فيها مدرسة التابعين ، وهي من أهمّ المؤسسات العلمية في ذلك العصر ، أمّا أعضاء هذه المؤسسة فقد نظم بعض الشعراء أسماءهم بقوله :

إذا قيل من في العلم سبعة أبحر      روايتهم ليست عن العلم خارجه  
فقل هم عبيد الله عروة قاسم      سعيد أبو بكر سليمان خارجه  
وقال شاعر آخر :

ألا كلّ من لا يقتدي بأئمة      فقسمته ضيزى عن العلم خارجه  
فخذهم عبيد الله عروة قاسم      سعيد سليمان أبو بكر خارجه<sup>(١)</sup>

ونتحدّث - بإيجاز - عن تراجم هؤلاء الأعلام ، وفيما يلي ذلك :

### ١ - سعيد بن المسيّب

سعيد بن المسيّب القرشي المخزومي ، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر<sup>(٢)</sup> ، وقد تدرّج في طلب العلم حتى صار من عيون العلماء ، وقد روى محدّد بن إسحاق عن مكحول قال : طفت الأرض كلّها في طلب العلم فما لقيت أعلم منه ، وقال ابن المديني : لا أعلم في التابعين أوسع علماً من سعيد بن المسيّب<sup>(٣)</sup> . وأثرت كلمات

(١) تاريخ أبي الفداء ١ : ٢٠٢ .

(٢) تهذيب التهذيب ٤ : ٨٧ .

(٣) تهذيب التهذيب ٤ : ٨٥ .

كثيرة من أعلام عصره في سمو مكانته العلمية ، وهو أحد الرواة عن إمام المتقين زين العابدين عليه السلام فقد لازمه وأخذ الكثير من علومه.

#### وثاقته

اختلف المترجمون له في وثاقته ، فذهب بعضهم إلى عدالته ، وذهب آخرون إلى تجريحه ، ومال الأستاذ الخوئي إلى التوقّف في أمره وذلك لعدم تمامية سند المدح والقدح فيه<sup>(١)</sup>.

وقد أثرت بعض الأخبار أنّ السلطة الأموية قد تبنته ، فقد روى عمرو بن ميمون عن أبيه ، قال : قدمت المدينة فسألت عن أعلم أهل المدينة ، فدفعني إلى سعيد بن المسيب<sup>(٢)</sup> ، ويستفاد من هذه الرواية أنّ السلطة الأموية هي التي دفعته إلى سعيد ، ومن المؤكّد أنّ هذه الرواية وأمثالها تقدح في عدالته.

#### وفاته

توفي في المدينة المنورة سنة (٩٤هـ) في خلافة الوليد ، وهو ابن خمس وسبعين سنة<sup>(٣)</sup>.

#### ٢ - عروة بن الزبير

عروة بن الزبير بن العوّام من فقهاء المدينة السبعة ، وكان أعلم الناس بحديث عائشة ، وقد وعى جميع أخبارها وأحاديثها<sup>(٤)</sup> ، فهي خالته ، وقد حضر مع أبيه الزبير في حرب الجمل ضدّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وكان عمره ١٣ سنة<sup>(٥)</sup> ، وكان عبد الملك بن مروان يشيد بذكره ، ومما قال فيه : من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل

(١) معجم رجال الحديث ٨ : ١٤٠.

(٢) تهذيب التهذيب ٤ : ٨٤.

(٣) المصدر السابق ٤ : ٨٦.

(٤) و (٥) تهذيب التهذيب ٧ : ١٨٢.

الجنة فلينظر إلى عروة بن الزبير<sup>(١)</sup>، توفي سنة (٩١ هـ)<sup>(٢)</sup>.

### ٣ - عبيد الله بن عبد الله

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة الهذلي ، قال العجلي : كان أعمى ، وكان أحد فقهاء المدينة ، تابعي ، ثقة ، رجل صالح ، جامع للعلم ، وهو معلّم عمر بن عبدالعزيز<sup>(٣)</sup> ، تغرّل في امرأة من هذيل قدمت مكة ، ومن غرله فيها :

أحبك حباً لو علمت ببعضه	لجذت ولم يصعب عليك شديد
وحبك يا أم الصبي مدلهي	شهيدي أبو بكر فذاك شهيد
ويعلم وجدي القاسم بن محمد	وعروة ما ألقى بكم وسعيد
ويعلم ما أضعن سليمان علمه	وخارجة يبدي لنا ويعيد
متى تسألي عما أقول فتخبري	فللحب عندي طارق وتليد

وبلغت هذه الأبيات سعيد بن المسيب فقال : والله لقد أمن أن تسألنا ، وعلم أنها لو استشهدت بنا لم نشهد لها بالباطل<sup>(٤)</sup> ، توفي سنة (٩٩ هـ)<sup>(٥)</sup>.

### ٤ - عبد الرحمن

ابن الحارث المخزومي المدني ، روى عن جماعة منهم الشهيد زيد بن علي والحسن البصري وحكيم بن حكيم وغيرهم . قال النسائي : ليس بالقوي ، ولكن ابن سعد قال : إنه ثقة ، وقال أحمد : متروك ،

(١) شذرات الذهب ٧ : ١٨٣ .

(٢) تهذيب التهذيب ٧ : ١٨٤ .

(٣) المصدر السابق : ١٢٣ .

(٤) الأغاني ٨ : ١٦ .

(٥) تهذيب التهذيب ٧ : ٢٤ .

٧٠..... الفقه الإسلامي : تأسيسه - أصوله - مداركه

وضَعفه علي بن المديني ، توفّي في خلافة أبي جعفر المنصور <sup>(١)</sup>.

#### ٥ - سليمان

ابن يسار الهذلي ، أبو أيوب المدني ، يقال : كان مكاتباً للسيدة أم سلمة ، روى عنها وعن عائشة ، وكان من علماء الناس بعد ابن المسيّب ، توفّي سنة (١٠٧ هـ) وهو ابن ٧٣ سنة <sup>(٢)</sup>.

#### ٦ - خارجة

ابن زيد بن ثابت الأنصاري النجاري المدني ، روى عن جماعة ، وروى عنه آخرون ، قال ابن سعد : كان ثقة ، كثير الحديث <sup>(٣)</sup> ، ولم يذكره الذهبي في حفاظ الحديث.

#### ٧ - القاسم

ابن محمّد بن أبي بكر ، روى عن أبيه وعن عمّته عائشة وعن العبادلة ، وروى عنه قوم آخرون ، قال البخاري : قتل أبوه وبقي يتيماً في حجر عائشة ، وفي رواية البخاري أنّه كان أفضل أهل زمانه ، وقال أبو الزناد : ما رأيت أحداً ألمّ بالسنة منه ، ولا أحدَ ذهناً <sup>(٤)</sup> ، تزوّج الإمام محمّد الباقر عليه السلام بابنته أمّ فروة ، فأولد سيّد الدنيا وعملاق الإسلام الإمام الصادق عليه السلام ، عدّه الشيخ تارة في أصحاب الإمام السجّاد ، وأخرى في أصحاب الإمام الباقر.

---

(١) تهذيب التهذيب ٦ : ١٥٥.

(٢) المصدر السابق ٤ : ١٢٩.

(٣) المصدر السابق ٨ : ٣٣٤.

(٤) معجم رجال الحديث ١٥ : ٤٨.

توفي سنة (١٠٢٠هـ) ، وكانت وفاته بعد وفاة عمر بن عبدالعزيز<sup>(١)</sup>... وبهذا ينتهي بنا الحديث عن الدور الثالث من تأسيس الفقه.

## الدور الرابع

وفي هذا الدور نمت الحركة العلمية ، واتسعت حركة التدوين والتأليف ، وأقيمت المؤسسات العلمية ، وكان من أبرزها جامعة الإمام الصادق.

عملت هذه الجامعة على تنوير الفكر الإنساني وتطوير المجتمع الإسلامي ، وقد أنتجت صفوة العلماء وقادة المفكرين والمبدعين والمخترعين في الشرق العربي ، يقول بعض الباحثين عنها : والحقيقة أنّ مدرسة الإمام جعفر الصادق عليه السلام الفكرية قد أنجبت خيرة المفكرين وصفوة الفلاسفة وجهابذة العلماء ، وإذا كانت هناك حقيقة يجب أن يقال فهي : أنّ الحضارة الإسلامية والفكر العربي مدينان لهذه المدرسة الفكرية بالتطور والرقى والخلود لعميدها الإمام الصادق بالمجد العلمي والتراث الثمين<sup>(٢)</sup>.

لقد عملت مدرسة الإمام الصادق على نشر الوعي الثقافي والعلمي ، وجندت جمهرة كبيرة من العلماء للقيام بتنشيف المسلمين بأحكام دينهم وتطوير حياتهم الدينية والاجتماعية.

يقول عارف ثامر : إنه أصبح من الواجب العلمي التحدث عن الإمام الصادق عليه السلام كعميد لأوّل مدرسة فكرية ورئيس لأوّل مركز لتعليم الفلسفة الباطنية وموجد علم الكيمياء الذي تكلم عنه جابر بن حيان الكوفي ، ومخرج العقل من نطاقه المحدود إلى فضاء رحيب تسيطر في أجوائه حرية الفكر العلمي السليم القائم على الحقيقة

(١) تهذيب التهذيب ٨ : ٢٣٥.

(٢) حياة الإمام الصادق عليه السلام ١ : ٦٣١.



والمنطق والواقع ، وناقل أكبر عدد من المخطوطات إلى اللاتينية ، فقد جاء أن أول شخصية تاريخية ظاهرة اشتغلت في الكيمياء لظهور عدد لا يستهان به من المخطوطات في الكيمياء..<sup>(١)</sup>

وعلى أي حال فإننا نتحدث عن جامعة الإمام الصادق عليه السلام ، لأنها فتقت أبواباً من العلوم لم يعهدها الشرق العربي من قبل.

لقد ملأ الإمام الصادق عليه السلام الدنيا بعلومه - على حدّ تعبير الجاحظ<sup>(٢)</sup> - ونقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان حسبما صرح به ابن حجر<sup>(٣)</sup> ، وهذه بعض ملامح مدرسته وجامعته :

### عوامل تأسيسها ونموها

أمّا العوامل التي أدّت إلى تأسيس مدرسة الإمام الصادق عليه السلام ونموها واتساعها فهي - فيما أحسب - كما يلي :

١ - أن العالم الإسلامي - في عهد الإمام الصادق عليه السلام - كان يرزح بالفتن والاضطراب ، ويموج بالفتن وبالأحزاب السياسية التي أدّت إلى اشتعال نار الحرب في جميع الحواضر والأقاليم الإسلامية ، الأمر الذي أدّى إلى سقوط الدولة الأموية وإقبارها وقيام الدولة العباسية ، وقد انتهز الإمام الصادق عليه السلام هذه الفرصة فانبرى يعمل بجهد إلى نشر الفقه الإسلامي ، وإبراز القيم الأصيلة الماثلة في أهل بيت النبوة ومعدن الحكمة.

٢ - أن الإمام الصادق عليه السلام كان بمعزل عن التدخّل في الشؤون السياسية ، فلم تخشاه الدولة الأموية والعباسية ؛ وذلك لعلمه بفشل المعارضة ، ولذا لم يتدخّل بأي

(١) جعفر الصادق ملهم الكيمياء : ٣٢.

(٢) رسائل الجاحظ (السندوبي) : ١٠٦.

(٣) الصواعق المحرقة : ١٢٠.

عمل سلبي يصطدم بأهداف إحدى الدولتين أو يمسّ الوتر الحساس من أهدافهم السياسية ، فقد كان بمعزل تامّ عنهم ، وقد أكبروه وطلبوا رضاه ، وقد وجد الإمام المجال مفتوحاً أمامه ففتح أبواب جامعته الكبرى التي أضاءت النفوس وبلورت العقول ، وقد سارع كبار العلماء والرواة إلى الالتحاق بمدرسته للانتقال من نمير علومه ، وقد وجد الإمام بهم خير عون لنشر أهدافه وقيمه.

٣- من عوامل النمو والانتساع لهذه الجامعة الكبرى التي لم يعهد لها نظير في تلك العصور هو أنّ الإمام الصادق عليه السلام عميد الأسرة النبوية في عصره كان هو العميد لهذه المؤسسة ، وقد أجمع المسلمون على تقديسه وتعظيمه ، وبذلك فقد توفّرت جميع العوامل لنجاح مدرسة الإمام ونموها.

### مركزها

اختار الإمام عليه السلام المدينة المنورة التي هي دار الهجرة ومهبط الوحي ، ومركز الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فجعل فيها مدرسته العظمى ، أمّا محلّ التدريس فكان -بالطبع- المسجد النبوي ، فكان الإمام يلقي محاضراته التي شملت جميع أنواع العلوم ، وفي بعض الأحيان كان يلقي دروسه في بهو بيته ، وقد ازدهرت يثرب بالهيئة العلمية ، واستعادت مكانتها الروحية في قيادة المجتمع الإسلامي.

### البعثات العلمية

وأسرع روّاد العلم والفضيلة من شتّى أقطار العالم الإسلامي إلى الالتحاق بمدرسة الإمام عليه السلام للانتقال من نمير علومه ، وتحدّث السيّد عبدالعزيز الأهل عن البعثات العلمية بقوله : وأرسلت الكوفة والبصرة وواسط والحجاز إلى جعفر بن محمد أفلاذ أكبادها من كلّ قبيلة من بني أسد ومن غني ومخارق وطيّ وسليم وغطفان وغفّار والأزد وخزاعة وختنعم ومخزوم وبني ضبّة ومن قريش ، ولا سيّما بني الحارث بن

عبدالمطلب وبني الحسن بن علي ، ورحل جمهور من الأحرار وأبناء الموالى من أعيان العرب وفارس ، ولا سيّما مدينة قم<sup>(١)</sup>. لقد اشتركت المدن الإسلامية على اختلاف لغاتها بالانتماء لمدرسة الإمام وأخذ أحكام الدين من سليل النبوة والإمامة.

### عدد طلابها

أمّا عدد طلاب مدرسة الإمام فكان عددهم - فيما يذكر الرواة - أربعة آلاف طالب<sup>(٢)</sup>، وقد ترجمت منهم في موسوعة الإمام الصادق عليه السلام في الجزء السادس ٣٦٥٢، وقد لاقيت جهداً شاقاً في تراجهمهم..

ومن المؤكّد أنّه لم تكن في تلك العصور جامعة علمية تضمّ هذا العدد الضخم ، وقد عبّ الدكتور محمود الخالدي على هذا العدد من طلاب الإمام بقوله : وبلغ عدد الرواة الثقات من أصحابه - أي أصحاب الإمام الصادق - أربعة آلاف رجل ، ولسنا نستغرب هذا ، بل قد كان ممكناً أن نستغرب عكسه لو وقع ونقل ؛ لأنّ النزاع حول الإمامة والعصمة كان قد بلغ في عصر الصادق أشده ، فلم يكن بدّ للشيعة من تتبّع الروايات التي تثبت صحّة عقيدتهم في تلك الشؤون ، وأهل البيت فوق ذلك أعلم بكتاب الله وسنّة نبيّه فلا عجب إذا اتّجهوا إلى التعليم والمناظرة والتدريس ، ولا سيّما بعد أن حاول الخلفاء الأمويون إبعادهم عن الحكم والسياسة.

وهذا الرأي وثيق للغاية دلّ على فضل الدكتور وإنصافه.

وقال السيّد محمّد صادق نشأت : كان بيت جعفر الصادق كالجامة يزدان على الدوام بالعلماء والكبار في الحديث والتفسير والحكمة والكلام ، فكان يحضر مجلس درسه في أغلب الأوقات ألفان من العلماء المشهورين ، وقد ألّف تلاميذه من جميع الأحاديث والدروس التي كانوا يتلقونها في مجلسه مجموعة من الكتب تعدّ

(١) جعفر بن محمّد : ٥٩.

(٢) الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية ١ : ٢٠٣.

بمثابة دائرة علمية للمذهب الشيعي أو الجعفري<sup>(١)</sup>.

وقد اتسعت الحركة العلمية في العالم الإسلامي بفضل الإمام الصادق عليه السلام وامتدّت موجاتها المشرقة إلى العصور الصاعدة وهي تبثّ النور والهدى لجميع المسلمين.

### المناهج العلمية

وتناولت محاضرات الإمام وبحوثه القيّمة في جامعته جميع أنواع العلوم العقلية والنقلية ومذاهب الكلام وألوان الآداب وضروب الثقافة العالية ، والتي منها :

١ - علم الفقه.

٢ - الحديث.

٣ - علوم القرآن.

٤ - علم الكلام.

٥ - الفلسفة.

٦ - الطب.

٧ - الكيمياء.

٨ - الفيزياء.

٩ - علم النبات.

١٠ - الجغرافيا.

إلى غير ذلك من العلوم التي تناولتها محاضراته ، ومن أبرز العلوم التي عنى بها الإمام عليه السلام علم الفقه الإسلامي بجميع أبوابه من العبادات والمعاملات والعقود والإيقاعات.

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ١: ٦٢.

ولم يقتصر الإمام العظيم في بحوثه على الناحية العلمية ، فقد توسّع في دروسه في نشر الآداب الاجتماعية وقواعد السلوك والآداب.

### فروع جامعته

وأغلب ممّن تخرّجوا من مدرسة الإمام عليه السلام قاموا في بلادهم بدور إيجابي ونشط في تأسيس المعاهد العلمية والمدارس الدينية ، وقد عملت على تهذيب الناس ورفع مستواهم الفكري والأخلاقي والديني.

وأعظم الفروع التي أُسّست ما أُقيم في مسجد الكوفة من الحلقات والحوارات العلمية ، وكان يتولّى تدريسهم المتخرّجون من جامعة الإمام عليه السلام ، وكان عددهم فيما يقول الرواة تسعمائة عالم.

يقول الحسن بن علي الوشا: أدركت في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - تسعمائة شيخ كلّ يقول: حدّثني جعفر بن محمّد<sup>(١)</sup>.

لقد اتّسعت الحركة العلمية أي اتّساع في الكوفة التي كانت عاصمة العراق في ذلك العصر ، وذلك ببركة وفضل جهود تلاميذ الإمام عليه السلام الذين أشاعوا العلم لا في الكوفة فحسب وإنّما في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

يقول السيّد مير علي الهندي: ولا مشاحة أنّ انتشار العلم في ذلك العصر قد ساعد على فكّ الفكر من عقالة ، فأصبحت المناقشات الفلسفية عامّة في كلّ حاضرة من حواضر العالم الإسلامي ، ولا يفوتنا أن نشير إلى أنّ الذي تزعم تلك الحركة هو حفيد عليّ بن أبي طالب المسمّى بالإمام جعفر ، والملقّب بالصادق ، وهو رجل رحب أفق التفكير ، بعيد أغوار العقل ، ملّم كلّ الإلمام بعلوم عصره ، ويعتبر في الواقع أوّل من أسّس المدارس الفلسفية المشهورة في الإسلام ، ولم يكن يحضر

(١) حياة الإمام الصادق عليه السلام ١: ١٣٥.

حلقاته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب فحسب ، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الأنحاء القاصية<sup>(١)</sup>.

### الأسر العلمية في الكوفة

وبرزت في الكوفة بعض الأسر العلمية التي تلقت العلوم ممّن تخرّج من مدرسة الصادق عليه السلام ، وكان من بينهم هذه الأسر:

#### ١ - أسرة آل أعين

آل أعين أسرة عريقة في العلم والشرف ، كان منهم العالم زرارة بن أعين ، وعبيد بن زرارة ، وحمران ، وعبدالرحمن ، وغيرهم من الفضلاء الذين ساهموا في بناء الفقه الإمامي ، وقد عرضت كتب التراجم إلى خدماتهم للإسلام وآثارهم العلمية<sup>(٢)</sup>.

#### ٢ - آل أبي سارة

وهم أهل بيت علم وفضل ، منهم محمّد بن أبي سارة وهو من أصحاب الصادق .

#### ٣ - آل أبي شعبة

الحليّون ، وقد عرفوا بالفضل والعلم ورواية الحديث والفقه عن الصادق عليه السلام .

#### ٤ - آل أبي صفية

ينتسبون إلى أبي حمزة الثمالي ، وكانوا من أهل العلم ، وممّن تربّوا في مدرسة الإمام الصادق عليه السلام .

#### ٥ - آل أبي الجعد

وهم من الأسر العلمية التي عرفت بالولاء لأهل البيت عليهم السلام ، كان منهم رافع بن سلمة وسالم بن أبي الجعد.

(١) جعفر بن محمّد: ٥٩.

(٢) تاريخ الكوفة: ٣٩٩ - ٤٠٤.

وهناك أسر أخرى عرفت بالفضل والأدب والفقه ، وقد تلقت علومها من أئمة الهدى عليهم السلام.

### الاختصاصيون من طلابه

وتخصّص الكثيرون من طلاب الإمام في جملة من العلوم ، فقد تخصّص في الفلسفة وعلم الكلام ومباحث الإمامة كلّ من هشام بن الحكم ، وهشام بن سالم ، ومحمّد بن علي بن النعمان الأحول ( مؤمن الطاق ) ، ومحمّد بن عبدالله الطيّار ، وقيس بن الماصر ، وغيرهم من جهابذة العلماء الذين كانت أندية الكوفة وبغداد تعجّ بمناظراتهم في الإمامة ، كما تخصّص زرارة بن أعين ، ومحمّد بن مسلم ، ويزيد بن معاوية ، وإسحاق بن عمّار ، وعبدالله الحلبي ، وأبوبصير ، وأبو حنيفة ، ومالك بن أنس ، وغيرهم من أعلام ذلك العصر فقد تخصّصوا في علم الفقه والحديث وتفسير القرآن الكريم. وتخصّص في علم الكيمياء مفخرة الشرق العربي جابر بن حيان الكوفي ، وهو أشهر عالم كيمياوي في العالم العربي كما قال فانديك .

وتخصّص في حكمة الوجود وأسرار الخليقة المفضّل بن عمر الذي أملى عليه الإمام الصادق عليه السلام كتابه الشهير توحيد المفضّل ، وهو من غرر الكتب الإسلامية التي حفلت بأوثق الأدلة على وجود الخالق العظيم ، وقد عرض هذا الكتاب إلى وظائف الأعضاء ودوران الدورة الدموية والجراثيم المسببة للأمراض وتشريح جسم الإنسان بشكل رائع لم يعهد له نظير.

إنّ جامعة الإمام الصادق عليه السلام قد سبقت المعاهد والمدارس العلمية في تأسيس الاختصاص بالدراسات العلمية العالية.

### اعتزاز وافتخار

واعتزّ تلاميذ الإمام عليه السلام بالحضور في مجلس درسه وجعلوا الانتماء لمدرسته من

المآثر التي تؤهلهم إلى المراكز العليا في المجتمع الإسلامي ، وممن فخر من تلاميذ الإمام عليه السلام أبو حنيفة فقد قال : لولا السنتان لهلك النعمان<sup>(١)</sup> ، لقد اعتز أبو حنيفة بالسنتين اللتين تشرف فيهما بالحضور في مجلس درس الإمام الصادق عليه السلام ، وجعلها من أفضل أدوار حياته العلمية ومن منجياته من الهلك .

وتحدث مالك بن أنس عن أستاذه العظيم الإمام الصادق عليه السلام قال : ما رأيت عين ، ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادةً وورعاً<sup>(٢)</sup> . وتحدث عن الإمام بإعجاب فقال : ولقد كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير التبسم ، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وآله اصفر لونه ، وما رأيته يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلا على طهارة ، ولقد اختلفت إليه زماناً ، فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال : إمّا مصلياً ، وإمّا صامتاً ، وإمّا يقرأ القرآن ، ولا يتكلم بما لا يعنيه ، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله<sup>(٣)</sup> .

لقد اعترف أبو حنيفة ومالك بن أنس بفضل الإمام وبالحضور في مجلس أبحاثه ومحاضراته ، فقد كان هذا الإمام بقیة النبوة والمنيع الأصيل للعلوم الإسلامية التي ورثها من آبائه العظام ومن جدّه الرسول الأعظم الذي فجّر ينابيع العلم والحكمة في الأرض .

### تدوين العلوم

وكثر تأليف العلوم وتدوينها في زمان الإمامين الباقر والصادق عليه السلام ، وكان من بينها الأصول الأربعمئة لأربعمئة فقيه ، وهي التي تلقوها من الإمامين ، فقد جمعت هذه الأصول في الكتب الأربعة وهي :

(١) التحفة الاثني عشرية : ٨ . الأعلام ١ : ١٨١ .

(٢) التوسل والوسيلة : ٥٢ .

(٣) حياة الإمام الصادق عليه السلام ١ : ١٤٢ .



٨٠..... الفقه الإسلامي : تأسيسه - أصالته - مداركه

١ - ( التهذيب ) ، ويحوي ( ١٣٥٩٠ ) حديثاً ، ألفه شيخ الطائفة الإمام الطوسي رحمه الله ، المتوفى سنة ( ٤٠٦ هـ ) .

٢ - ( من لا يحضره الفقيه ) ، ويحتوي علي ( ٩٠٤٤ ) حديثاً ، ألفه العلامة الكبير الشيخ الصدوق نصر الله مثواه .

٣ - ( الاستبصار ) ، وبلغت أحاديثه ( ٥٥١١ ) ، ألفه الشيخ الطوسي رحمه الله .

٤ - ( الكافي في أصول الدين وفروعه ) ، عدد أحاديثه ( ١٦١٩٩ ) ، ألفه أبو جعفر الكليني ثقة الإسلام ، المتوفى في بغداد سنة ( ٣٠٩ هـ ) .

وبلغ من اهتمام الإمام الصادق عليه السلام بنشر العلم وإشاعة الثقافة بين المسلمين أنه كان يوصي تلاميذه على تدوين دروسه ومحاضراته ، فقد روى أبو بصير قال : دخلت على أبي عبد الله فقال : « ما يمنعكم من الكتابة ، إنكم لن تحفظوا حتى تكتبوا ، إنه خرج من عندي رهط من أهل البصرة يسألون عن أشياء فكتبوها » <sup>(١)</sup> .

ومن الجدير بالذكر أن الإمام عليه السلام طلب من تلميذه العالم جابر بن حيان أن يخترع له قرطاساً لا تحرقه الناس ؛ لأنّ عنده مؤلفاً عزيزاً عليه أحب أن يكتبه على هذا القرطاس ، واخترع له جابر ذلك ، فكتب عليه السلام كتابه بخطّ يده وألقاه في التنور بعد إيقاده فلم يتأثر بشيء <sup>(٢)</sup> .

وعلى أي حال فقد أقبل أصحاب الإمام الصادق عليه السلام على التأليف ، فألف أبان بن تغلب جمهرة من الكتب كان منها :

١ - كتاب معاني القرآن .

٢ - كتاب القرآن <sup>(٣)</sup> .

٣ - كتاب الفضائل .

٤ - الأصول في الرواية .

---

(١) حياة الإمام الصادق عليه السلام : ١٣٧ .

(٢) الإمام الصادق كما عرفه علماء العرب ، جابر بن حيان وخلفاؤه : ٥٧ .

(٣) فهرست ابن النديم : ٢٧٦ .

- ٥ - غريب القرآن.
- وَأَلَّفَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَلِيٍّ الْبَجَلِيُّ الشَّهِيرُ بِمُؤْمَنِ الطَّاقِ هَذِهِ الْكُتُبُ :
- ١ - كتاب الإمامة.
- ٢ - كتاب المعرفة.
- ٣ - كتاب إثبات الوصية.
- ٤ - كتاب الردّ على المعتزلة.
- ٥ - كتاب في أمر طلحة والزبير وعائشة.
- ٦ - كتاب افعّل ولا تفعل.
- ٧ - كتاب المناظرة مع أبي حنيفة.
- وَأَلَّفَ هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ أَبُو مُحَمَّدٍ الْبَغْدَادِيُّ فِي مُخْتَلَفِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَذَكَرَ لَهُ ابْنُ النَّدِيمِ سَبْعَةَ عَشَرَ مُؤَلَّفًا.
- وَأَلَّفَ الْمِفْضَلُ بْنُ عَمْرِو بْنِ كِتَابِ (التوحيد) وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ الْكُتُبِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَقَدْ عَرَضَ فِيهِ إِلَى خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَتَكْوِينِهِ ، وَمَا فِي أَعْضَائِهِ مِنَ الْأَسْرَارِ الدَّقِيقَةِ ، كَمَا عَرَضَ إِلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْبَحْثِ الطَّبِيعِيِّ.
- وَأَلَّفَ جَابِرُ بْنُ حَيَّانٍ كِتَابًا فِي عِلْمِ الْكِيمْيَاءِ يَقَعُ فِي أَلْفِ وَرَقَةٍ تَضَمَّنَتْ رِسَائِلَ الْإِمَامِ الَّتِي بَلَغَتْ خَمْسَمِائَةَ رِسَالَةٍ <sup>(١)</sup> ، وَكَانَتْ رِسَائِلُهُ مَصْدَرًا خَصْبًا لِعُلَمَاءِ الْكِيمْيَاءِ وَاسْتَفَادُوا مِنْهَا فَائِدَةً كَثِيرًا.
- إِنَّ جَابِرَ بْنَ حَيَّانٍ أَحَدَ شَمُوعِ مَدْرَسَةِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمِنْ مَفَاخِرِ الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ.
- وَهُنَاكَ كَوَكْبَةٌ أُخْرَى مِنْ تَلَامِيذِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَرَعُوا فِي التَّأْلِيفِ ، وَقَدْ تَرَجَمَ الْمُحَقِّقُ الْكَبِيرُ الشَّيْخُ آغا بَزْرُكَ الطَّهْرَانِيُّ نَصْرَ اللَّهِ مِثْوَاهَ مَائَتِي رَجُلٍ مِنْ مُصَنِّفِي تَلَامِيذِ الْإِمَامِ <sup>(٢)</sup>.

(١) حياة الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ ١ : ١٣٨.

(٢) الذريعة ٦ : ٣٠١ - ٣٧٤.

## كتب نسبت للإمام الصادق

ونسبت بعض الكتب للإمام الصادق عليه السلام ، كان منها :

### ١ - الجفر الأحمر

والى هذا الكتاب يشير أبو العلاء المعري بقوله :

لقد عجبوا لآل البيت لما أتاهم علمهم في جلد جفر<sup>(١)</sup>  
ومرآة النجم وهي صغرى أرتبه كل عامرة وقفر<sup>(٢)</sup>

### ٢ - مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة

يعرض هذا الكتاب إلى ما أثر عن الإمام الصادق عليه السلام من الكلمات الحكمية ، وهو مطبوع.

### ٣ - بحار الأنوار

ولم نطلع على محتويات هذا الكتاب حتى نعرف مدى صحة نسبته للإمام<sup>(٣)</sup>.

### ٤ - الهفت الشريف

وهذا الكتاب مطبوع في بيروت ، وقد قدّم له الدكتور مصطفى غالب ، ولا يصح نسبة هذا الكتاب للإمام لما فيه من الأوهام والخرافات ، والإمام مفجر الحكمة والوعي في دنيا الإسلام بعيد كل البعد عن أمثال هذا الكتاب الذي انعدم فيه حتى الربط والتنسيق في كلماته.

(١) الجفر: هو الجلد ، وكانت العادة في تلك العصور يكتبون على الجلد وعلى العظام وذلك لقلة

القرطاس ، جاء ذلك في وفيات الأعيان ١ : ٣٣٧.

(٢) نور الأبصار (الشبلنجي) : ١٤١.

(٣) المرشد إلى الأدب الإسماعيلي : ٢٩.

#### ٥ - الجعفریات

ويحتوي هذا ألف حديث نسبت للإمام عليه السلام ، وقد أعرض معظم الفقهاء الإمامية على الاستدلال بها والاعتماد عليها ، ولكن بعض الفقهاء إذا أعوزته النصوص استند في فتواه إلى هذا الكتاب أو جعله مؤيداً له .  
وبهذا ينتهي بنا الحديث عن هذا الدور الذي بلغت فيه الحركات العلمية وفي مقدمتها الفقه الإسلامي الذروة والتطور .

### الدور الخامس

ويبدأ الدور الخامس للفقه الإمامي في زمن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الذي هو من منابع النور والحكمة والفقه في الإسلام ، وقد قام بدور إيجابي ومتميز بنشر العلوم وإشاعتها بين الناس ، وكان من أبرزها علم الفقه والحديث ، فقد تولّى تدريسهما للفقهاء والعلماء ، وقد احتفوا به لا يفارقونه ولا يفترقون عنه يسجلون محاضراته وأبحاثه وفتاواه ، فقد روى السيد ابن طاووس أن تلاميذ الإمام كانوا يحضرون مجلسه ومعهم في أكمامهم ألواح أبنوس لطاف وأميال ، فإذا نطق بكلمة أو أفتى بنازلة بادروا إلى تسجيل ذلك <sup>(١)</sup> .

وقد ترجمنا من تلامذة ورواة حديثه (٣٢١) في كتابنا حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الجزء الثاني (ص ٢٢٣ - ٣٧٣) ، وقد انتشر علم الإمام في جميع الأوساط الإسلامية ، وتحذت الأندية والمجالس عن فضله ، فخاف الطاغية الرشيد وأمر باعتقاله ، فاعتقله في ظلمات السجون ، ثم دس إليه السم على يد الخبيث السندي ابن شاهك المدير العام لشرطته .

## الدور السادس

ويبدأ هذا الدور بالإمام الرضا عليه السلام ، وهو من الأئمة الطاهرين الذين فجّروا بناييع الحكمة والعلم في دنيا الإسلام ، وهو أعظم شخصية علمية عرفها التاريخ بعد آباءه العظام ، وقد احتفّ به الفقهاء والعلماء ورووا عنه جميع ألوان العلوم ، خصوصاً الفقه ، ولمّا تولّى الإمام عليه السلام ولاية العهد - بإكراه - من قبل المأمون وسافر إلى خراسان ، احتفّ به الرواة وسجّلوا الكثير من علومه ، ونشطت الحركة العلمية أي نشاط في عهده ، وقد عرضنا ما أثر عنه من العلوم خصوصاً الفقه في كتابنا (حياة الإمام الرضا عليه السلام) ، وذكرنا الكثير من المسائل التي سئل عنها وجوابه عنها.

وبعدما اغتيل الإمام بالسّم من قبل المأمون العباسي قام الإمام الجواد ، وهو أصغر الأئمة سنّاً بتدريس الفقهاء والعلماء ، وقد عرضنا لذلك في كتابنا (حياة الإمام الجواد عليه السلام) ، ولم يطل عهده ، فقد سقي السّم من قبل الحكومة العباسية ، وتولّى بعده ولده الإمام الهادي ، ثمّ الحسن العسكري عليه السلام ، وقد فرضت عليهم الحكومات العباسية الإقامة الجبرية في سرّ من رأى ، كما حجبت العلماء والفقهاء من الالتقاء بهما حتى التحقاً بالرفيق الأعلى شهيدين على أيدي الطغمة الحاكمة من بني العباس. وآلت الإمامة الكبرى إلى المصلح الأعظم الذي يقيم اعوجاج الدين ويصلح ما فسد من أمور الدنيا ، ويملؤها قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً ، وقد اختفى عن الأنظار خوفاً من الحكومة العباسية التي اتخذت جميع الوسائل لإلقاء القبض عليه وتصفيته جسدياً ، وقد أقام أربعة وكلاء يتولّى بنفسه الإجابة عمّا يرد إليه من الأسئلة الشرعية على يد وكلائه ، وقد ذكرنا في كتابنا (حياة الإمام المهدي عليه السلام) كوكبة من المسائل التي أجاب عنها الإمام بتوسّط الوكلاء وهم :

### ١ - عثمان بن سعيد

وهو من وكلائه ، وكان ثقة زكياً جليلاً ، وقد شغل مركز النيابة عن الإمام عليه السلام ، وكان

همزة وصل بين الإمام عليه السلام وشيعته ، انتقل إلى حضيرة القدس ودفن في مقرّه الأخير في بغداد بجانب الرصافة ، وله قبر مشيد يزوره المؤمنون.

## ٢ - محمد بن عثمان

تولّى محمد بن عثمان شرف النيابة عن الإمام عليه السلام بعد وفاة أبيه عثمان ، وكان عالماً زاكياً ، ألف مجموعة من الكتب في الفقه والحديث الذي سمعه من الإمامين الحسن العسكري والإمام المهدي ومن أبيه عثمان<sup>(١)</sup> ، التقى بالإمام المهدي عليه السلام في الكعبة المقدّسة ، وسمعه يدعو بهذا الدعاء : « اللهم انتقم من أعدائك ، اللهم انجز لي ما وعدتني »<sup>(٢)</sup> ، وبلغ من عظيم إيمانه أنّه حفر له قبراً وينزل فيه ويقرأ فيه جزءاً من القرآن الكريم ، وصنع لوحاً كتب فيه آيات من الذكر الحكيم وأسماء الأئمة الطاهرين ، وأوصى أن يدفن معه ، انتقل إلى جوار الله تعالى سنة (٣٠٥هـ)<sup>(٣)</sup>.

## ٣ - الحسين بن روح

وهو النائب الثالث للإمام عليه السلام ، وكان على جانب كبير من التقوى والصلاح ووفور العلم والعقل ، وكانت له مناظرات مع المعاندين في الإمامة دلّت على براعته وفضله وإحاطته بالبحوث الكلامية ، وقد ذكرناها في كتابنا (حياة الإمام المهدي عليه السلام) ، وقد بقي سفيراً للإمام عليه السلام إحدى أو اثنين وعشرين سنة ، وقد انتقل إلى رضوان الله تعالى سنة (٣٢٦هـ) ، ودفن في مقرّه الأخير في بغداد في سوق الشورجة ، وتنهافت الناس على زيارة قبره الشريف.

(١) بحار الأنوار ١٣ : ٩٧.

(٢) حياة الإمام المهدي عليه السلام : ١٢٥.

(٣) المصدر السابق : ١٢٦.

#### ٤ - عليّ بن محمّد السمری

تقلّد النيابة عن الإمام المنتظر عليه السلام ، وكانت الاستفتاءات في الفقه من الشيعة ترد على يده ، ويرفعها إلى الإمام عليه السلام فيجيب عنها ، وهو آخر وكلاء الإمام ، وقد أرسل إليه الإمام هذه الرسالة جاء فيها مخبراً له بوفاته.

« يا عليّ بن محمّد السمری ، عظم الله أجر إخوانك فيك ، فإنك ميت ما بين ستة أيام فاجمع أمرك ، ولا توص إلى أحد فيقوم مقامك بعد وفاتك ، فقد وقعت الغيبة التامة ، فلا ظهور إلا بإذن الله تعالى ذكره ، وذلك بعد طول الأمد وقسوة القلب ، وامتلاء الأرض جوراً...إلى آخره » .  
ولم تمضِ الستة أيام حتى وافاه الأجل المحتوم ، وكانت وفاته في النصف من شهر شعبان سنة (٣٢٨هـ).

وبوفاته فقد حلت غيبة الإمام عليه السلام ، وأقام عليه السلام الفقهاء العظام وكلاء عامين عنه يتولّون شؤون الشيعة في أمورهم الدينية.

وقد بلغ المراجع العظام بالفقه أسمى المراحل في التطوّر والإبداع ، فقد ألّف الإمام الشيخ محمّد حسن ( جواهر الكلام ) وهو أهمّ موسوعة فقهية ، وألّف الشيخ يوسف البحراني ( الحقائق الناضرة ) وهي مليئة بالفروع والاستدلال عليها ، وألّف الإمام الحكيم ( مستمسك العروة الوثقى ) ، وهو من أجل الكتب الاستدلالية ، وألّف سيّد الطائفة السيّد عبدالأعلى السبزواري ( مهذب الأحكام ) ، وهو من الكتب الجليلة ، وألّف تلاميذ الإمام الخوئي بحوثه الاستدلالية في الفقه وتبلغ العشرات ، وقد كتبت جميع بحوثه على ( العروة الوثقى ) ، ولو طبعت لبلغت أكثر من ١٥ مجلداً.

وعلى أي حال فقد انبرى المئات من عباقرة الفقهاء وأساطينهم إلى تأليف الموسوعات في هذا العلم الشريف ، وقد بحثوا مسائله وفروعه بحثاً موضوعياً ودقيقاً ورائعاً ، وبهذا نظوي الحديث عن تأسيس الفقه.

أصالة الفقه

الإسلامي واستقلاله







وتميّز الفقه الإسلامي بالأصالة والاستقلال وعدم الارتباط بأي قانون من القوانين الوضعية التي لم تقم على قواعد ثابتة ، وإنما أقيمت على أسس غير سليمة يطرأ عليها التغيير والتبديل ، وقد أثبتت البحوث العلمية والتجارب الخارجية فشلها وعدم قدرتها على حلّ مشاكل الإنسان.

وعلى أي حال فإننا نعرض - بإيجاز - إلى بعض الأقوال التي أدلى بها بعض الحاقدين على الإسلام ، وقد اتهمته بارتباطه وأخذه من بعض القوانين ، وفيما يلي ذلك :

### الفقه الإسلامي والقانون الروماني

ذهب بعض المستشرقين إلى ارتباط الفقه الإسلامي بالقانون الروماني ، كان منهم مولد زيهري في كتاب (محاضرات عن الإسلام) ، وغون كريمري في كتاب (تاريخ الثقافة السريّة في أيام الخلفاء) ، وآيموس في كتاب (القانون المدني الروماني) ، . ملبوبوسي في كتابه (الأبحاث في العلاقات بين البيزنطية والإسلام) ، وغيرهم<sup>(١)</sup> . وهذا الرأي سطحي وشاذ ، وليس له أي سند علمي ، فإنّ مشروع الإسلام . مسلمين في الصدر الأول لم تكن لهم أيّة صلة بالرومانيين ، ولم يكن هناك أيّ يدلّ على أنّ الفقه الروماني قد ترجم إلى اللغة العربية في تلك العصور حتى

٩٠..... الفقه الإسلامي : تأسيسه - أصوله - مداركه

يأخذ المسلمون عنه ، فإنَّ اهتمام العرب بترجمة الكتب الأجنبية إلى اللغة العربية ،  
إنَّما كان في القرن الثالث الهجري ، وذلك بعد بناء الفقه الإسلامي واستقامته.

### المفارقات بين الفقه الإسلامي والروماني

وذكر المعنيون بالبحوث الإسلامية عدَّة مفارقات بين القانون الروماني والفقه  
الإسلامي كان منها :

١ - أنَّ النساء الرومانيات كنَّ تحت الوصاية الدائمة ، وكنَّ مدى حياتهنَّ لا يمكنهنَّ  
التصرُّف في أموالهنَّ إلَّا بإجازة الزوج ، أمَّا الفقه الإسلامي فقد أعطى المرأة الأهلية  
التامة في جميع التصرفات ومنحها الحرية التامة في التصرف بأموالها.

٢ - أنَّ المهر في الزواج عند الرومانيين تدفعه المرأة إلى زوجها ، وعند الشرع  
الإسلامي بالعكس ، الزوج يدفعه إلى زوجته.

٣ - التبنِّي يقرُّه الفقه الروماني ولا يقرُّه الشرع الإسلامي.

٤ - أنَّه لا يعتبر اللفظ في العقود بجميع أنواعها عند الرومانيين ، ويعتبر اللفظ في  
الشريعة الإسلامية في أكثر العقود التي منها عقد الزواج والطلاق ، وفي الحديث :  
« إنَّما يحلُّ الكلام ويحرِّم الكلام ».

٥ - أنَّ حوالة الدين غير جائزة في الفقه الروماني وجائزة في الفقه الإسلامي.

٦ - أنَّ أحكام الشفعة والوقف الذري غير معروف في الفقه الروماني وأسس في  
الفقه الإسلامي<sup>(١)</sup>.

٧ - أنَّ الفقه الروماني قد وضع للرومانيين ، بينما الفقه الإسلامي قد وضع للناس  
جميعاً على اختلاف لغاتهم وقومياتهم.

٨ - أنَّ القانون الروماني لا يحمل أي طابع من التطوُّر والتقدُّم ، بينما الفقه  
الإسلامي حافل بجميع ألوان التطوُّر والإبداع.

يقول الدكتور السنهوري : إنَّي زعيم لكم بأن تجدوا في ذخائر الشريعة الإسلامية

---

(١) فلسفة التشريع الإسلامي : ١٩٠ - ١٩١.

من المبادئ والنظريات عن أحدث المبادئ والنظريات وأكثرها في الفقه الغربي<sup>(١)</sup>. ولا نظيل البحث عن هذا القول الذي تبنته أبواق الاستعمار الغربي ، والذي يهدف إلى التقليل من أهمية الفقه الإسلامي الذي هو بلسم لجميع مشاكل الحياة.

### الفقه الإسلامي والقوانين الوضعية

ويمتاز الفقه الإسلامي بأصالته وروعة تشريعاته الشاملة لجميع شؤون الحياة ، وليست له أية صلة أو ارتباط بالقوانين الوضعية ، يقول (زيس) -أحد علماء القانون الفرنسي -: إني أشعر حينما أمرّ في كتب الفقه الإسلامي أنني قد نسيت كلّ ما أعرفه عن القانون الفرنسي أو عن القانون الروماني ، وأصبحت أعتقد أنّ الصلة منقطعة بين الشريعة الإسلامية وبين هذين القانونين ، فبينما يعتمد قانوننا على العقل البشري تقوم الشريعة الإسلامية على الوحي الإلهي ، فكيف يتصوّر التوفيق بين نظامين بينهما هذه الدرجة من الاختلاف؟<sup>(٢)</sup>.

وعلى أي حال فإنّ الفقه الإسلامي لا يلتقي مع القوانين الوضعية ، وأبرز ما يكون بينهما من الاختلاف هذه الصور :

أولاً: أنّ القوانين الوضعية قد أباحت الربا واعتبرته من المكاسب المشروعة والمرخص بها ، في حين أنّ الإسلام حرّمه كأشدّ ما يكون التحريم واعتبره من كبائر الذنوب والجرائم؛ لأنّه يؤدّي إلى شل الحركة الاقتصادية وتكدّس الثراء الفاحش عند ذوي الضمائر المميّنة.

ثانياً: أنّ القوانين الوضعية أباحت الاستغلال وقد حرّمه الإسلام ونهى عنه.

ثالثاً: أنّ القوانين الوضعية أباحت مصانع الخمر وسمحت ببيعها وجلبها من الخارج ، وقد منع الإسلام من ذلك أشدّ المنع؛ لأنّه يؤدّي إلى إثتاعة الفساد والجريمة بالإضافة إلى أضراره على الصّحة.

(١) الفقه الإسلامي بين المثالية والواقعية: ٩.

(٢) المدخل للتشريع الإسلامي: ٢٥ ، نقلاً عن مبادئ تاريخ القانون: ١٣.

رابعاً: أنّ القوانين الوضعية أجازت تأسيس بيوت الدعارة والبغاء ، وجعلت الدولة مسؤولة عن حمايتها ، والإسلام منع ذلك أشدّ المنع واعتبر جريمة الزنا من أفحش الجرائم؛ لأنّها تخلّ بالشرف والنسب وتنتج أولاداً غير شرعيين يشكّلون خطراً على المجتمع في سلوكهم وعقدتهم النفسية وجرائمهم ، بالإضافة إلى ما يجزّره الزنا من الأمراض الخطيرة كالسيلان والزهري ومرض الإيدز الذي ذهب ضحيّته ملايين البشر وعجز الطبّ عن مكافحته.

خامساً: أنّ العنصر الأخلاقي يسير جنباً إلى جنب مع الفقه الإسلامي ، فجميع تشريعاته استهدفت الرأفة والرحمة وكرامة الإنسان وحقّه في الحياة ، في حين أنّ القوانين الوضعية لم تعن بذلك ، وهذا هو السبب في فشلها ، وقد أدرك ذلك كبار السياسيين في الغرب .

يقول ويلسون الرئيس الأسبق للولايات المتّحدة : إنّ حضارتنا إن لم تنقذ بالمعنويات فلن تستطيع المثابرة على البقاء بمادّيّاتها ، وأنّها لا يمكن أن تنجو إلّا إذا سرت الروح الدينية في جميع مماسها ، ذلك الأمر الذي يجب أن تتنافس فيه معابدنا ومنظمتنا السياسية وأصحاب رؤوس أموالنا وكلّ فرد خائف من الله محبّ لبلده<sup>(١)</sup>.

ويعزو المارشال مونتهجومري إلى أنّ سبب الانتصار في العمليات الحربية يعود إلى العامل الأخلاقي ، يقول : إنّ أهمّ عامل للانتصار في الحرب هو العامل الأخلاقي ، ولا يمكن لقائد أن يدفع جنوده إلى بذل أقصى جهودهم في العمل إلّا إذا كانت ضمائرهم مرتاحة إلى ما يعملونه ، ويقين أنّ الجيش إذا سار على غير مرضاة الله سار على غير هدى.

إنّ خطر الانحلال الخلقي في أفراد الجيش أعظم من خطر العدو ، ولذلك لا نستطيع أن ننصر في المعركة إلّا إذا انتصرنا على أنفسنا قبل كلّ شيء<sup>(٢)</sup>.

(١) العلم والدين (المشير أحمد عزّت) : ١٣٣.

(٢) الفقه الإسلامي بين المثالية والواقعية : ١١٠.

سادساً: أنّ القانون الإسلامي قد وضع لجميع البشر على اختلاف قومياتهم ولغاتهم، أمّا القوانين الوضعية فقد وضعت لدولة خاصّة أو إقليم خاصّ ولا يسري تشريعها لبلد آخر.

إنّ الشريعة الإسلامية بجميع مناحي أحكامها منزلة من الله تعالى لجميع عباده لا تغيير ولا تبديل فيها، وأنها تسير مع الزمن، وتواكب الحضارة الإنسانية في جميع عصورها، أمّا القوانين الوضعية فإنّها لا تلبث أن تتغيّر مع تغيّر الهيئات الحاكمة؛ لأنّها لا تعبر عن مصالح الهيئة الجديدة.

يقول المسترولز: كلّ شريعة لا تسير مع المدنية في كلّ طور من أطوارها فاضرب بها عرض الحائط ولا تبالي بها؛ لأنّها شرّ مستطير تحرّك إلى الهلاك... أمّا الشريعة التي وجدتها تسير مع المدنية جنباً إلى جنب هي الشريعة الإسلامية، وإذا أراد إنسان أن يعرف شيئاً من هذا فليقرأ القرآن وما فيه من نظريات علمية، وقوانين وأنظمة لربط المجتمع، فهو كتاب ديني علمي اجتماعي نهديبي خلقي تاريخي، وكثير من أنظمتة وقوانينه تستعمل حتى في وقتنا الحالي، وستبقى مستعملة حتى قيام الساعة، وهل في استطاعة إنسان أن يأتي بدور من الأدوار كانت فيه الشريعة الإسلامية مغايرة للمدنية والتقدّم.

وعلى أي حال فإنّ الفقه الإسلامي فقه متطوّر خلاق يجمع ولا يشتت، ويوحد ولا يفرّق، يساير الطبيعة ويواكب الفطرة، أمّا القوانين الوضعية فقد أثبتت التجارب فشلها عن مسايرة الحياة.

#### أهميّة الفقه الإسلامي عند علماء القانون

وأدرك علماء القانون الغربي مدى الأهميّة البالغة للفقه الإسلامي، وأصالة ما امتاز به من الإبداع والمرونة ومعالجته الصائبة لقضايا الإنسان على اختلاف أنواعها وضروبها.. وقد عقدت عدّة مؤتمرات ضمّت المختصّين بالقانون من دكاترة وكبار

المحاميين فقرّروا بالإجماع أنّ التشريع الإسلامي حافل بالتطوّر والإبداع ، وهذه بعض مؤتمراتهم :

#### ١ - المؤتمر الدولي في لاهاي

وانعقد المؤتمر الدولي للفقه المقارن في لاهاي سنة (١٩٤٣م) ، وقد قرّر لامبير - وهو من كبار أساتذة القانون - اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العامّ ، وأنها حيّة قائمة بذاتها.

#### ٢ - مؤتمر المحامين الدولي

وفي سنة (١٩٤٨) انعقد مؤتمر المحامين الدولي في لاهاي وقرّر ضرورة تبني الدراسة المقارنة للتشريع الإسلامي لما فيه من مرونة وأهميّة.

#### ٣ - مؤتمر الحقوقيين في باريس

وعقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولي مؤتمراً في كلية الحقوق من جامعة باريس للبحث في الفقه الإسلامي تحت شعار (أسبوع الفقه الإسلامي) ، وقد اشترك في المؤتمر عدد من المتخصّصين في الشريعة والقانون في البلاد العربية ، بالإضافة إلى عدد من كبار المحامين في فرنسا ، وبعد أن قدّمت إلى المؤتمر عدّة محاضرات علمية عن جوانب مختلفة من الشريعة الإسلامية قرّر المؤتمر ما يلي :

١ - أنّ مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمة حقوقية تشريعية لا يمارى فيها.

٢ - أنّ اختلاف المذاهب الفقهية في هذه المجموعة الحقوقية العظمى ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعلومات ، ومن الأصول الحقوقية التي هي مناط الإعجاب ، وبها يستطيع الفقه الإسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها.

وقد أوصى المؤتمر بوضع معجم للفقه الإسلامي يسهّل الرجوع إلى المصادر

الفقهية ليكون موسوعة للفقه الإسلامي ، يعرض فيها الأحكام الشرعية بطريقة حديثة تتلاءم أسلوباً مع التطورات المعاصرة<sup>(١)</sup>.

إنَّ الفقه الإسلامي متطورٌ يفي بحاجات الناس ومتطلّباتهم ، لا تعقيد فيه ولا التواء ولا جمود ، إنَّه الدين القيم الذي ارتضاه الله لعباده ، وجعله منهجاً لحياتهم ، وأعلن الدكتور عبدالرزاق السنهوري ، وهو أفضل عالم عربي في القانون أنَّ الشريعة الإسلامية أفضل ما قُتِنَ في عالم التشريع ، يقول : إنَّي زعيم لكم بأن تجدوا في ذخائر الشريعة الإسلامية من المبادئ والنظريات ما لا يقلُّ في رقي الصياغة وفي أحكام الصنعة عن أحدث المبادئ والنظريات وأكثرها تقدماً في الفقه الغربي... وختم كلامه بقوله : فالشريعة الإسلامية - كما رأيتم - مصدر خصب للتشريع<sup>(٢)</sup>.

وقال السنهوري في موضع آخر من بحوثه : وهذه هي الشريعة الإسلامية لو وطئت أكنافها وعبدت سبلها لكان لنا في هذا التراث الجليل ما نفتح روح الاستقلال في فقهننا وفي تشريعنا ، ثمَّ لأشرفنا نطالع العالم بهذا النور الجديد فتضيء به جانباً من جوانب الثقافة العالمية في القانون<sup>(٣)</sup>.

وتمنّى السنهوري أن تكون الشريعة الإسلامية هي الأساس في محاكمنا ، يقول : أمّا جعل الشريعة الإسلامية هي الأساس الأوّل الذي يبنى عليه تشريعنا فلا يرال أُمْنِيّة من أعزّ الأُمْنِيّات التي تختلج بها الصدور وتنطوي عليها الجوانح<sup>(٤)</sup>.

(١) المدخل للتشريع الإسلامي : ١٧ - ١٨. المدخل الفقهي العام ١ : ٩.

(٢) الفقه الإسلامي بين المثالية والواقعية : ٢٩.

(٣) النظرية العامة للنزاعات ، الجزء الأوّل في نظرية العقد.

(٤) الوسيط في شرح القانون المدني - نظرية الالتزام : ٤٨.





# مصادر التشريع الإسلامي





أمّا المصادر التي ينتهل الفقهاء من نميرها لاستنباط الأحكام الشرعية ويفتون على ضوءها ، فهي عند الشيعة الإمامية أربعة وهي :

١ - الكتاب العزيز.

٢ - السنّة المقدّسة.

٣ - الإجماع.

٤ - دليل العقل.

أمّا عند غيرهم من علماء المذاهب الإسلامية فقد ألغوا دليل العقل وأضافوا إلى الأدلّة الثلاثة :

١ - القياس.

٢ - الاستحسان.

٣ - المصالح المرسلة.

ونعرض - بإيجاز - إلى إلقاء الأضواء على هذه المدارك :

### أولاً : الكتاب العظيم

القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى أنزله على عبده ورسوله النبيّ محمد ﷺ ليكون معجزة خالدة له ، ومصدر هداية للعباد ، يقيم أودهم ويصلح شؤونهم ، ويبعث فيهم النور والعلم والحكمة ويهديهم للتي هي أقوم..

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ - أي على الرسول - الْكِتَابَ نُوراً لَا

تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ ، وَسِرَاجاً لَا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ ، وَبَحْراً لَا يُذْرِكُ قَفْرُهُ ، وَمِنْهَا جَاءَ لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ ،  
وَشِعَاعاً لَا يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ ، وَفُرْقَاناً لَا يُخْمدُ بَرْهَانُهُ ، وَبَيِّنَاتٍ لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ ، وَشِفَاءً لَا تُخْشَى  
أَسْقَامُهُ ، وَعِزّاً لَا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ ، وَحَقّاً لَا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ . فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَيُخْبِوْخْتُهُ ، وَيَتَابِعُ  
الْعِلْمَ وَيُخَوِّرُهُ ، وَرِيَاضَ الْعَدْلِ وَغَدْرَانُهُ ، وَأَثَافِي الْإِسْلَامِ وَبُنْيَانُهُ ، وَأَوْدِيَةَ الْحَقِّ وَغِيْطَانُهُ . وَبَحْراً لَا  
يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ ، وَعُيُونٌ لَا يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ ، وَمَتَاهِلٌ لَا يَغِيْضُهَا الْوَارِدُونَ ، وَمَتَازِلٌ لَا يُضِلُّ  
نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ ، وَأَعْلَامٌ لَا يَغْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ ، وَآكَامٌ لَا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ . جَعَلَهُ اللَّهُ  
رَبّاً لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ ، وَرَبِّيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ ، وَمَحَاجَّ لِمَطَرِ الصُّلَحَاءِ . وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ ،  
وَنُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ ، وَحَبَلاً وَثيقاً عَزْوَتُهُ ، وَمَعْقِلاً مَنِيْعاً ذُرْوَتُهُ ، وَعِزّاً لِمَنْ تَوَلَّاهُ ، وَسَلَماً لِمَنْ  
دَخَلَهُ ، وَهُدًى لِمَنْ اتَّخَذَهُ ، وَغُدْرَةً لِمَنْ انْتَحَلَ ، وَبِرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ، وَشَهِيداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ ،  
وَقُلُجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ ، وَحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ ، وَجَنَّةً لِمَنْ  
اسْتَلَّامَ ، وَعِلْماً لِمَنْ وَعَى ، وَحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى ، وَحُكْماً لِمَنْ قَضَى» (١) .

ووصفه الإمام عليه السلام وصفاً رائعاً بغير ذلك الوصف بقوله : « وَفِي الْقُرْآنِ نَبَأٌ مَا كَانَ  
قَبْلَكُمْ ، وَخَبَرٌ مَا بَعْدَكُمْ ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ » (٢) ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من  
جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو  
الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به  
الألْسنة ، من قال به صدق ، ومن عمل به أُجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه  
فقد هدى إلى صراط مستقيم .

وأثرت عن أئمة الهدى عليه السلام كلمات ذهبية تحدَّثوا فيها عن عظمة القرآن الكريم ،  
وأَنَّه الرحمة الكبرى التي وهبها الله تعالى لعباده يهديهم إلى منهج الحق والعدل  
والتوازن في سلوكهم وبناء مجتمعاتهم ..

يقول أبو إسحاق الشاطبي : إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ هُوَ أَصْلُ الْأُصُولِ . والغاية التي تنتهي

(١) البيان : ٢١ . نهج البلاغة ، الخطبة رقم ١٩٨ .

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم رقم ٣١٣ .

إليها أنظار الأنظار ومدارك أهل الاجتهاد ، وليس وراءه مرمى ؛ لأنه كلام الله تعالى : ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُتَبَيِّنَاتُ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقال تعالى : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال الشافعي : ليس تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله تعالى الدليل على سبيل الهدى ، وأخرج عند ابن جرير وابن حاتم أنه قال : أنزل الله تعالى في هذا القرآن كل علم وبيّن فيه كل شيء ، ولكن علمنا يقصر عما بيّن لنا في القرآن الكريم. إنّ عظمة القرآن لا تحيط بكنهها الأوصاف ، فهو ليس كسائر الكتب المقدّسة التي تناولت الحياة الروحية ، ولكنه عقيدة وشريعة ونظام كامل لحياة الإنسان.

#### حجّة ظواهر الكتاب

أمّا ظواهر الكتاب العظيم فقد ذهب علماء الأصول من الإمامية إلى حجّيتها وجواز الأخذ والعمل بها مستدلّين على ذلك بما يلي :

##### أولاً : حجّة ظواهر الكلام

إنّ ظواهر الكلام حجّة من غير خلاف ، وهي شاملة لكتاب الله العزيز وغيره ما لم يحتفّ بقرينة متّصلة تمنع من انعقاد ظهوره ، أمّا إذا كانت القرينة منفصلة فإنّ ظهور الكلام ينعقد ، وهي تكون مخصّصة لعمومه أو مقبّدة لإطلاقه ، وغير ذلك ممّا هو مقرّر في كتب أصول الفقه ، وكتاب الله تعالى كغيره من ضروب الكلام ، ومن المؤكّد أنّ الرسول الأعظم ﷺ لم يخترع أسلوباً آخر لإفهام المسلمين في إلقائه لآيات الكتاب العزيز ، ولو كانت له طريقة أخرى لنقلت إلينا.

(١) النجم : ٤٢.

(٢) النحل : ٨٩.

(٣) الأنعام : ٣٨. الموافقات : ١٣٣.

## ثانياً: الاستدلال بالآيات

واستدلّ الأصوليون على حجّية ظواهر الكتاب بكوكبة من الآيات كان منها :

١ - قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ <sup>(١)</sup>.

حكّت الآية الكريمة أنّ القرآن الكريم يسّره الله تعالى لعبده ورسوله بلسانه ونهجه ، وهو لا يختلف عن بقيّة ظواهر الكلام العربي.

٢ - قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ <sup>(٢)</sup>.

أمر الله تعالى عباده بهذه الآية بتدبر القرآن الكريم وتفهم آياته ، ومن المؤكّد أنّ تدبر الآيات إنّما هو الأخذ بظواهرها والتأمّل في مدلولها.

٣ - قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ \* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ \* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ <sup>(٣)</sup>.

حكّت الآيات الكريمة أنّ القرآن العظيم منزل من ربّ العالمين خالق الأكوان وواهب الحياة أنزله الروح الأمين على عبده ورسوله ونبّه محمّد ﷺ بلسان عربي مبين ، لا تعقيد ولا غموض فيه لينذر به عباد الله تعالى ، ومن الطبيعي أنّ الإنذار والتبليغ إنّما هو باللغة السائدة بين العرب التي كانت ظواهر الألفاظ فيها حجّة.

٤ - قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ <sup>(٤)</sup>.

أعلنت الآية أنّ الله تعالى يسّر قرآنه الكريم لعباده للذكر وجعله منهجاً متكاملًا لعباده ، وهو حجّة عليهم بظواهره ، وبما احتوت عليه آياته من أحكام وآداب وحكم وأمثال.

هذه بعض الآيات التي استدلّ بها على حجّية ظواهر الكتاب العزيز.

(١) الدخان : ٥٨.

(٢) محمّد ﷺ : ٢٤.

(٣) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥.

(٤) القمر : ١٧.

### ثالثاً: الأخبار

استدلّ الأصوليون بطائفة من الأخبار على حجّية الظواهر في الكتاب كان منها:

١ - حديث الثقلين المتواتر بين المسلمين وهو قول النبي ﷺ: « خَلَفْتُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِترتي أَهْلَ بَيْتِي مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضَلُّوا بَعْدَهَا أَبَداً » الحديث ، وهو يدلّ بوضوح على لزوم التمسّك بالقرآن والعمل بما فيه.

٢ - عرض الأخبار المتعارضة عليه والأخذ بالخبر الذي يتّفق مع ظاهر الكتاب العزيز ، كما دلّت على ذلك رواية عمر بن حنظلة عن الإمام الصادق عليه السلام ، فقد جاء فيها: « ينظر ما وافق حكم الكتاب والسنة.. فيؤخذ به ».

٣ - تقرير الإمام عليه السلام للأخذ بظواهر الكتاب؛ وذلك لما قال له زرارة: من أين علمت أنّ المسح ببعض الرأس؟ فقال عليه السلام: « لمكان الباء... » ، وأشار الإمام إلى الآية الكريمة: ﴿ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ ﴾ فإنّ الباء تفيد التبعية.

ولمّا وشي بالإمام الصادق عليه السلام إلى الطاغية الدوانيقي قال الإمام له: « إنّ الواشي فاسق ، والله تعالى يقول: ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ فَبَيِّنُوا ﴾ » الآية .

ومن بنود الاستشهاد بظواهر الكتاب أنّ شخصاً أطال الجلوس في بيت الخلاء لاستماع الغناء معتذراً أنّه لم يكن شيئاً أتاه برجله ، فسأل الإمام عن ذلك فقال له: « أما سمعت قول الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ ؟ » .

ومن موارد الاستشهاد بظواهر الكتاب رواية عبد الأعلى في حكم من عثر فوق ظفره فجعل على إصبعه مرارة ، فأجابه الإمام عليه السلام: « إنّ هذا وشبهه يعرف من كتاب الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ » ، ثمّ قال له: « امسح عليه » ، وقد أرشده الإمام إلى أنّ هذا لا يحتاج إلى السؤال لوجوده في ظاهر القرآن .

إلى غير ذلك من الموارد التي نطقت بها الأخبار على استشهاد أئمة الهدى عليهم السلام بظواهر آيات الكتاب العزيز<sup>(١)</sup>.



### المنكرون لحجية ظواهر الكتاب

واستدلّ المحذّثون على عدم حجّية ظواهر القرآن الكريم بكوكبة من الأخبار كان منها ما يلي :

أولاً : أنّ فهم آيات الكتاب مختصة بأهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وغيرهم لا مجال له للأخذ والعمل بظواهر الكتاب ، وقد دلّت على ذلك بعض الروايات منها :

١ - مرسلّة شعيب بن أنس عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لأبي حنيفة : « أنت فقيه أهل العراق ؟ » .

نعم .

« بأي شيء تفتيهم ؟ » .

بكتاب الله وسنة نبيّه .

« يا أبا حنيفة ، تعرف كتاب الله حقّ معرفته وتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ » .

نعم .

« يا أبا حنيفة ، لقد ادّعت علماً ، ما جعل الله ذلك إلّا عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم ، وبلك ما هو إلّا عند الخاصّة من ذرية نبيّنا صلى الله عليه وآله ، وما ورّك الله تعالى من كتابه حرفاً » .

٢ - روى زيد الشحام قال : دخل قتادة على الإمام أبي جعفر عليه السلام فقال الإمام له : « أنت فقيه أهل البصرة ؟ » .

هكذا يزعمون ..

« بلغني أنّك تفسّر القرآن ؟ » .

نعم .

« يا قتادة ، إن كنت فسّرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلك ، وإن كنت قد فسّرتّه من الرجال فقد هلكت وأهلك . يا قتادة ، ويحك إنّما يعرف القرآن من خوطب به » .

وأجاب علماء الأصول عن هذين الخبرين وغيرهما ممّا يشابههما في أنّ المراد بفهم القرآن الكريم إن كان هو معرفة ظاهره وباطنه وخاصّه وعامّه ومطلقه ومقيده وناسخه ومنسوخه فلا شبهة أنّ ذلك مختصّ بأهل البيت عليهم السلام ، وإن كان المراد فهم مفردات الألفاظ والأخذ بظواهرها فليس ذلك من التفسير في شيء ، والحال فيه كالأخذ بظواهر الألفاظ في السنّة المقدّسة وغيرها.

ثانياً: أنّ الأخبار قد تواترت عن النبيّ وعن أئمّة أهل البيت عليهم السلام على النهي عن تفسير القرآن الكريم بالرأي ، وكان منها هذه الروايات والأخذ بالظواهر ليس منها :

#### ١ - الأحاديث النبوية

وهي طوائف :

الأولى: روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : « من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار ».

الثانية: قال عليه السلام : « من فسر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب ».

#### ٢ - أحاديث أهل البيت

وأثرت عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام طائفة من الأخبار دلّت على النهي عن تفسير القرآن بالرأي كان منها :

١ - روي عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام : « إنّ من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر ، وإن أخطأ سقط أبعد من السماء ».

٢ - قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام : « من حكم برأيه بين اثنين فقد كفر ، ومن فسر برأيه آية من كتاب الله تعالى فقد كفر ».

٣ - قال عليه السلام : « ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن ، إنّ الآية يكون أولها في شيء ، وآخرها في شيء ، وهو كلام متّصل ينصرف إلى وجوه »<sup>(١)</sup>.

إلى غير ذلك من الأخبار المانعة من تفسير القرآن بالرأي ، وقد أجاب عنها الإمام الأنصاري بقوله : إنّ هذه الأخبار لا تدلّ على المنع من العمل بالظواهر الواضحة المعنى بعد الفحص عن نسخها وتخصيصها؛ إذ من المعلوم أنّ هذا لا يسمّى تفسيراً ، فإنّ أحداً من العقلاء إذا رأى في كتاب مولاه أنّه أمره بشيء بلسانه المتعارف بمخاطبته له عربياً أو فارسياً أو غيرهما فعمل به وامثله لم يعدّ هذا تفسيراً ، فإنّ التفسير كشف القناع.

ثمّ لو سلّم كون مطلق حمل اللفظ على معناه تفسيراً لكان الظاهر أنّ المراد بالرأي هو الاعتبار العقلي الظنّي الراجع إلى الاستحسان ، فلا يشمل حمل اللفظ الوارد في الكتاب على معناه اللغوي أو العرفي أنّه من التفسير بالرأي..

والمراد بالتفسير بالرأي حمل اللفظ على خلاف ظاهره أو أحد احتماليه لرجحان يراه الشخص ، ويرشد إلى ذلك ما روي عن الإمام الصادق أنّه قال : « إنّما هلك الناس في المتشابه ؛ لأنّهم لم يقفوا على معناه ، ولم يعرفوا حقيقته فوضعوا له تأويلاً من عند أنفسهم بآرائهم ، واستغنوا بذلك عن مسألة الأوصياء فيعرفونهم »<sup>(١)</sup>.

إنّ حمل الألفاظ على ظواهرها بعد الفحص عن القرائن المتّصلة والمنفصلة من الكتاب والسنة لا يعدّ من التفسير بالرأي ولا من التفسير نفسه<sup>(٢)</sup>.  
ثالثاً: النهي عن اتّباع المتشابه .

ومنع القرآن الكريم - بوضوح - عن العمل بالمتشابه ، قال الله تعالى : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾<sup>(٣)</sup>.  
والمتشابه يشمل الظاهر ، وقد أجيب عن ذلك بأنّ لفظ المتشابه واضح المعنى ولا إجمال فيه ، ومعناه أن يكون للفظ وجهان من المعاني أو أكثر ، وجميع هذه

(١) فرائد الأصول ، مباحث الظنّ ١ : ٥٦ - ٥٨ .

(٢) البيان : ٢٦٩ .

(٣) آل عمران : ٧ .

المعاني في درجة واحدة بالنسبة إلى ذلك اللفظ ، فإذا أطلق احتمال كل واحد من تلك المعاني أن يكون هو المراد ، وعليه فيجب التوقف في الحكم إلى أن تقوم قرينة على التعيين ، وعلى ذلك فلا يكون اللفظ الظاهر المعنى من المتشابه<sup>(١)</sup>.

رابعاً: غموض معاني القرآن .

ومما أورد على الأخذ بظواهر القرآن الكريم أن فيه مطالب غامضة ومعاني شامخة لا يصل إلى معرفتها إلا العلماء الملهمون فكيف يجوز الأخذ بها؟ وأجيب عن ذلك بأن معرفة القرآن الكريم والإحاطة بأسراره تختص بأهل بيت النبوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وذلك لا يمنع من العمل بظواهر الألفاظ بعد الفحص عن القرائن المتصلة والمنفصلة. هذه بعض الملاحظات التي أدلى بها المانعون من التمسك بظواهر الكتاب ، وقد فندها الأصوليون واستدلوا على حجيتها بالأدلة المتقدمة.

## ثانياً : السنة المقدسة

وأجمع الفقهاء على أن السنة المقدسة هي المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم ، وأنه يجب التعبد والأخذ بها متى صحّت وثبتت عن رسول الله ﷺ ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقوله تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾<sup>(٣)</sup> ، وقوله سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾<sup>(٤)</sup>. أما السنة فتشمل ما يلي :

(١) البيان : ٢٧٠.

(٢) الحشر : ٧.

(٣) النساء : ٨٠.

(٤) النساء : ٦٥.

١ - قول النبي ﷺ .

٢ - فعل النبي ﷺ .

٣ - تقرير النبي ﷺ ، وهو أن يقول شخص أو يفعل شيئاً بمحضر الرسول ﷺ فيسكت عنه أو يستحسنه ، ويعتبر ذلك إقراراً على مشروعيته ، ولو كان غير جائز وغير مشروع لنهاه عنه ، وهنا بعض البحوث التي تتصل بهذا الموضوع منها ما يلي :

#### السنة عند الشيعة

أما السنة عند الشيعة فإنها تشمل ما أثر عن أئمة الهدى ﷺ من أقوال وأفعال وتقارير ، فإن جميع ما صح عنهم من أحكام وآداب تتعلق بسلوك الفرد وغير ذلك من صنوف الأخلاق كلها مستقاة من جدّهم الرسول ﷺ ، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ حديثه حديث أبيه ، وحديث أبيه حديث جدّه إلى أن ينتهي إلى جدّهم الأعظم الرسول ﷺ .

#### حجة الشيعة

احتجّت الشيعة على لزوم التعبد بما صدر عن أئمة أهل البيت ﷺ من أحكام في العبادات والمعاملات بأوثق الأدلة الحاسمة التي لا تسع المسلم إهمالها ، ولا التغاضي عنها ، ولم يكن التعبد بأحاديث العترة ناشئاً عن الوراثة والبيئة ، وإنما كان ناشئاً عن الالتزام بحرفية الإسلام ..

أما أدلتهم فإنّها مستندة إلى الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإلى السنة المتواترة التي لا يشوبها شك ، والتي أجمع المسلمون على روايتها ، ونحن نشير إلى بعض أدلتهم .

#### الكتاب العظيم

واستدل الشيعة على لزوم الأخذ بما أثر عن أئمة أهل البيت ﷺ بكوكبة من الآيات كان منها ما يلي :

### ١ - آية التطهير

وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾<sup>(١)</sup>.  
أجمع المفسرون والرواة على أَنَّ الآية المباركة نزلت في الخمسة أصحاب الكساء صلوات الله عليهم ، وهم : سيّد الكائنات الرسول محمد ﷺ ، وصنوه الجاري مجرى نفسه الإمام أمير المؤمنين ﷺ ، والبضعة الطاهرة سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها ، وريحاننا الرسول ﷺ الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة ، ولم يشاركهم أحد من أسرة النبيّ ولا من غيرهم من أعلام الصحابة<sup>(٢)</sup>.

وقد دلّت الآية المباركة على عصمتهم من الرجس - أي الذنب - بصورة مؤكّدة ، فالجملة اسمية ، وكلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ تفيد الحصر وإرادة الله تعالى التي هي من الإرادة التكوينية لا التشريعية ، ويستحيل فيها تخلف المراد عن الإرادة.

وهذه طائفة من الأخبار الصحاح تؤيّد نزول الآية في أهل البيت ﷺ وهي :  
أولاً: أَنَّ السيّدة الزكية أمّ المؤمنين أمّ سلمة روت أَنَّ الآية نزلت في بيتها ، وفيه كانت سيّدة النساء فاطمة الزهراء ﷺ وعليّ والحسن والحسين ﷺ ، فجّلّلهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه ، ثمّ قال : « اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً » يكرّر ذلك وأمّ سلمة تسمع وترى فقالت : وأنا معكم يا رسول الله ؟ ورفعت الكساء لتدخل فجذبه منها وقال : « إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ »<sup>(٣)</sup>.

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) تفسير الرازي ٦: ٧٨٣. صحيح مسلم ٢: ٣٣١. تفسير ابن جرير ٢٢: ٥. مسند أحمد بن حنبل ١٠٧: ٤. سنن البيهقي ٢: ١٥. مشكل الآثار ١: ٣٣٤. الخصائص الكبرى ٢: ٢٦٤ ، وغيرها.  
وقد أورد ابن جرير في تفسيره خمسة عشر رواية بأسانيد مختلفة على اختصاص الآية بأهل البيت ﷺ.

(٣) مستدرک الحاكم ٢: ٤١٦. أسد الغابة ٥: ٥٢١.

ثانياً: روى عبد الله بن عباس قال : شهدت رسول الله ﷺ سبعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول : « السلام عليكم » ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ الصلاة يرحمكم الله « خمس مرّات <sup>(١)</sup> .

ثالثاً: روى أبو برزة قال : صلّيت مع رسول الله ﷺ سبعة أشهر ، فإذا خرج من بيته أثر باب فاطمة عليها السلام فقال : « السلام عليكم » ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ <sup>(٢)</sup> .

رابعاً: احتجاج الإمام الزكي الحسن عليه السلام بالآية الكريمة على اختصاصها بهم ، فقد قال في بعض خطبه : « وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » <sup>(٣)</sup> .  
لقد تضافرت الأخبار بصورة شاملة من طرق العترة الطاهرة على اختصاص الآية بأهل البيت عليه السلام ، وشاع ذلك في الأوساط الإسلامية ، يقول السيّد الحميري :

إِنَّ يَوْمَ التَّطْهِيرِ يَوْمٌ عَظِيمٌ خَصَّ بِالْفَضْلِ أَهْلَ الْكِسَاءِ <sup>(٤)</sup>

وهناك شبهة في شمول الآية لنساء النبي ﷺ ، وقد حقّقنا بصورة موضوعية خروجهنّ من الآية في كتابنا ( حياة الإمام الحسين عليه السلام ) .  
وعلى أي حال فقد أخذت الشيعة أحكام دينها من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة الذين أذهب الله عنهم الرجس وعصمهم من الفتن والأهواء .

## ٢ - آية المودة

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرِضْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ <sup>(٥)</sup> .

(١) الدر المنثور ٥ : ١٩٩ .

(٢) ذخائر العقبى : ٢٢٤ .

(٣) مستدرک الحاكم ٢ : ١٧٢ .

(٤) الأغاني ٧ : ٢٣٩ .

(٥) الشورى : ٢٣ .

ذهب جمهور المفسرين والرواة إلى أنَّ المراد بالقريبى - في الآية - هم : عليّ وفاطمة والحسنان سلام الله عليهم ، والمراد من ( اقراراف الحسنه ) مودّتهم وولاؤهم ، وقد نصّت كوكبة من الأخبار على أنَّ المراد بالقريبى هم أهل البيت عليهم السلام ، وهذه بعضها :

١ - روى ابن عباس قال : لمّا نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله ، من قرابتك الذين أوجبت علينا مودّتهم؟ قال عليه السلام : « عليّ وفاطمة وابناهما »<sup>(١)</sup>.

٢ - روى جابر بن عبد الله الأنصاري قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال له : اعرض عليّ الإسلام؟ فقال : « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله ».

فانبرى الأعرابي قائلاً : تسألني عليه أجراً؟

« لا ، إلا المودة في القربى ».

وظفّق الأعرابي قائلاً : قرباي أم قرباك؟

« بل قرباي ».

وراح الأعرابي يقول : فعلى من لا يحبّك ولا يحبّ قرباك لعنة الله ، هات أبايك وأسرع النبي صلى الله عليه وآله قائلاً : « آمين »<sup>(٢)</sup>.

٣ - روى ابن عباس قال : لمّا نزلت آية المودة قال قوم في نفوسهم - يعني : الحسد لأهل البيت - : ما يريد إلا أن يحثنا على قرابته من بعده ، فنزل جبرئيل على النبي صلى الله عليه وآله ومعه هذه الآية : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ ، وأخبر النبي صلى الله عليه وآله القوم فقالوا له : إنك صادق<sup>(٣)</sup>.

(١) مجمع الزوائد ٧ : ١٠٣ . ذخائر العقبى : ٢٥ .

(٢) حلية الأولياء ٣ : ١٠٢ .

(٣) الصواعق المحرقة : ١٠٢ .



### احتجاج العترة بالآية

احتجّت العترة الطاهرة بالآية الكريمة على لزوم مودّتهم وولائهم ، وهذا عرض لبعض ما أثر عنهم :

#### ١ - الإمام أمير المؤمنين

احتجّ الإمام أمير المؤمنين على خصومه بالآية الكريمة ، قال عليه السلام : « فينا نزلت ال ﴿حم﴾ آية لا يحفظ مودّتنا إلّا كلّ مؤمن » ثمّ تلا الآية : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ <sup>(١)</sup>.

#### ٢ - الإمام الحسن

خطب سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانته الإمام الزكي الحسن عليه السلام ، واستشهد بالآية ، قال عليه السلام : « وأنا من أهل البيت الذين افترض الله مودّتهم على كلّ مسلم ، قال تبارك وتعالى : ﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ » <sup>(٢)</sup>.

#### ٣ - الإمام زين العابدين

احتجّ الإمام زين العابدين وسيّد الساجدين عليه السلام بالآية لمّا جيء به أسيراً إلى فاجر بني أميّة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، وقد أقيم على مدارج دمشق ومعه حرائر الوحي سبايا انبرى إليه رجل من أهل الشام قد ظلّته الدعاية الأموية بأنّ أهل البيت عليهم السلام من الخوارج فقال للإمام بعنف : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرني الفتنة.

فنظر إليه الإمام فرآه مخدوعاً مغفلاً ، فقال له بلطف : « أقرأت القرآن؟ » نعم.

(١) كنز العمال ١ : ٢١٨. الصواعق المحرقة : ١٠١.

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام ١ : ٦٨.

« أقرأت الـ ﴿حم﴾ ؟ ».

قرأت القرآن ولم أقرأ الـ ﴿حم﴾.

« ما قرأت ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ ؟ ».

فذهل الرجل ومشى الرعدة بأوصاله وسارع قائلاً: إنكم لأنتم هم ؟  
« نعم »<sup>(١)</sup>.

وودَّ الرجل أن الأرض قد ساخت به ولم يقابل الإمام بتلك الكلمات القاسية ،  
وتقدّم إلى الإمام طالباً منه الرضا والعفو فمنحه ذلك.

إنّ الولاء لأهل البيت عليهم السلام فريضة دينية يسأل عنها المسلم يوم يلقي الله تعالى ،  
يقول محمّد بن إدريس الشافعي :

يا أهل بيت رسول الله حبّكم      فرض من الله في القرآن أنزله  
كفاكم من عظيم القدر أنكم      من لم يصلّ عليكم لا صلاة له<sup>(٢)</sup>

ويقول شاعر الإسلام الكميت الأسدي :

وجدنا لكم في الـ حم آية      تأولها منا تقي ومعرّب

إنّ في مودة أهل البيت عليهم السلام والإخلاص لهم أداءٌ لأجر الرسول الأعظم على ما  
عاناه من جهد شاق وعسير في سبيل إنقاذ البشرية من مخالب الشرك والإلحاد.  
وعلى أيّ حال فإنّ الشيعة تأخذ معالم دينها من العترة الطاهرة التي فرض الله  
مودّتها على عباده ، ولا أظنّ أنّ هناك شخصاً من أهل العلم يذهب إلى أنّ الأخذ بما  
أثر عنهم من الأحكام الشرعية غير جائز وغير صحيح ولا بدّ من إعادة العمل.

(١) تفسير الطبري ٢٥: ١٦.

(٢) نور الأبصار: ١٠٤.

## ٢- آية أولي الأمر

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ <sup>(١)</sup> .  
حكمت الآية الكريمة لزوم طاعة الله تعالى فيما يأمر به وينهى عنه ، وكذلك إطاعة الرسول وأولي الأمر ، وقد ألحق طاعتهم بطاعة الرسول ﷺ ، ولم يكرّر الفعل ، أعني : ﴿ أَطِيعُوا ﴾ ، وقد ذهب الكثير من المفسرين إلى أنّ المراد بـ ﴿ أولي الأمر ﴾ هم أهل بيت النبوة ومعدن الرحمة سلام الله عليهم . والشيعة تأخذ معالم دينها من النبي وأولي الأمر الذين فرض الله طاعتهم على عباده .  
وقد ذكر المتكلمون من الشيعة كوكبة من الآيات التي نزلت في أهل البيت  تلزم المسلمين بالرجوع إليهم والعمل بما أثر عنهم ، وبهذا ينهي المطاف عما استدلّ به الشيعة من بعض الآيات على لزوم العمل بنفقه أهل البيت  .

## أدلة الشيعة من السنة

وتمسكت الشيعة بطائفة من الأخبار الصحاح التي أجمع الرواة على صحتها ، وهي صريحة واضحة المفاد في لزوم الأخذ بما روي عن العترة الطاهرة كان منها ما يلي :

### حديث الثقلين

أمّا حديث الثقلين فهو من أكثر الأحاديث النبوية انتشاراً بين المسلمين ومن أصحّها سنداً ، وتلقاه علماء المسلمين بالرضا والقبول ، وقد أدلى النبي ﷺ بهذا الحديث في مواضع متعدّدة كان منها :

١- روى زيد بن أرقم قال : نزل رسول الله ﷺ ثمّ أقبل على الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : « إِنِّي لَا أَجِدُ لِنَبِيِّ إِلَّا نَصْفَ عَمْرٍ الَّذِي قَبْلَهُ ، وَإِنِّي أَوْشِكُ أَنْ أَدْعَى فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ » .

فَهتَفُوا جَمِيعاً: نصحت.

ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيْهِمْ كَلِمَاتَهُ قَائِلاً: «أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ».

فَسَارَعُوا قَائِلِينَ: نشهد.

وَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فَوَضَعَهَا عَلَى صَدْرِهِ الشَّرِيفِ وَقَالَ: «أَلَا تَسْمَعُونَ». نعم.

«فَإِنِّي فَرُطٌ عَلَى الْحَوْضِ، وَأَنْتُمْ وَارِدُونَ عَلَى الْحَوْضِ، وَأَنَّ عَرْضَهُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَبَصْرَى، فِيهِ أَقْدَاحُ عَدَدِ النُّجُومِ، فَاَنْظُرُوا كَيْفَ تَخْلَفُونِي فِي الثَّقَلَيْنِ».

فَنَادَاهُ مِنْ يَهُوِ الْمَجْلِسِ مَنَادٌ: مَا الثَّقَلَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

«كِتَابُ اللَّهِ طَرَفٌ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَطَرَفٌ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، وَالْآخِرُ عَشِيرَتِي<sup>(١)</sup>، وَأَنَّ اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ نَبَأَنِي أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرْدَا عَلَيَّ الْحَوْضِ، فَسَأَلْتُ ذَلِكَ رَبِّي فَلَا تَقْدَمُوهُمَا فَتَهْلِكُوا وَلَا تَقْصُرُوا عَنْهُمَا، وَلَا تَعْلَمُوهُنَّ فَهَمَّ أَعْلَمُ مِنْكُمْ».

ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ أَخِيهِ الْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ع<sup>(٢)</sup> وَقَالَ: «مَنْ كُنْتُ أَوَّلَى مِنْ نَفْسِهِ فَعَلَيٌّ وَلِيَّهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مِنْ وَالَاهُ وَعَادِ مِنْ عَادَاهُ»<sup>(٣)</sup>.

٢- رَوَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي حَجَّةِ الْوُدَاعِ يَوْمَ عَرَفَةَ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ يَخْطُبُ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللَّهِ وَعِترَتِي أَهْلَ بَيْتِي»<sup>(٣)</sup>.

٣- رَوَى زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمَا بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ، كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِترَتِي أَهْلُ

(١) فِي كَنْزِ الْعَمَالِ بَدَلَ «عَشِيرَتِي» فِي لَفْظِ «عِترَتِي».

(٢) مَجْمَعُ الْهَيْثَمِيِّ ٩: ١٦٣.

(٣) صَحِيحُ التِّرْمِذِيِّ ٢: ٣٠٨. كَنْزُ الْعَمَالِ ١: ٨٤.

بيتي ، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما..»<sup>(١)</sup>.  
هذه بعض المواضع التي أدلى بها النبي ﷺ بحديث الثقلين.

#### سند الحديث

أمّا الحديث فهو من أوثق الأحاديث النبوية ، وقد نقل المناوي عن السمهودي أنّ  
في الباب عشرين من أصحابه كلّهم قد رووا الحديث<sup>(٢)</sup>.  
وقال ابن حجر: ولهذا الحديث طرق كثيرة عن بضع وعشرين صحابياً<sup>(٣)</sup> ، ولا  
يخامر أي باحث أدنى شك في صحّة الحديث وسلامته من الوضع والافتعال.

#### دلالة الحديث

أمّا دلالة الحديث فهي عصمة أهل البيت ﷺ من كلّ إثم ورجس ، فقد قرن  
النبي ﷺ بين الكتاب والعترة ، فكما أنّ الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من  
خلفه فكذلك العترة وإلّا لما صحّت المقارنة بينهما ، فالحديث يدلّ بوضوح على  
عصمة أهل البيت ﷺ ، والشيعّة تأخذ معالم دينها من العترة الطاهرة التي هي عدلاً  
للذكر الحكيم ، وتتعبّد بما أثار عنهم من أحكام الإسلام.

#### حديث السفينة

روى أبو سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنّما أهل بيتي فيكم  
كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق ، وإنّما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطّة في  
بني إسرائيل من دخله غفر له... »<sup>(٤)</sup>.

(١) صحيح الترمذي ٢ : ٣٠٨.

(٢) فيض القدير ٣ : ١٤.

(٣) حياة الإمام أمير المؤمنين ١ : ١٢١.

(٤) مجمع الزوائد ٩ : ١٦٨. مستدرک الحاكم ٢ : ٤٣. تاريخ بغداد ٢ : ١٩. حلية الأولياء ٤ : ٣٠٦.

الذخائر : ٢٠.

حكى الحديث الشريف أنّ في التمسك بأهل البيت نجاه ومغفرة ورضواناً من الله تعالى وسلامة من عذابه وعقابه ، ومن العترة الطاهرة تأخذ الشيعة أصول دينهم وفروعه .

يقول الإمام الأعظم شرف الدين نصر الله مثواه : وأنت تعلم أنّ المراد من تشبيههم ﷺ بسفينة نوح أنّ من لجأ إليهم في الدارين فأخذ فروعه وأصوله عن أئمتهم نجا من عذاب النار ، ومن تخلف عنهم كان كمن آوى يوم الطوفان إلى جبل ليعصمه من أمر الله ، غير أنّ ذلك غرق في الماء وهذا في الحميم والعياذ بالله .

والوجه في تشبيههم ﷺ بباب حطة هو أنّ الله تعالى جعل ذلك الباب مظهراً من مظاهر التواضع لجلاله والخنوع لحكمه ، وبهذا كان سبباً للمغفرة.. هذا وجه الشبه . وقد حاول ابن حجر إذ قال بعد أن أورد هذه الأحاديث وغيرها من أمثالها : ووجه تشبيههم بالسفينة أنّ من أحبهم وعظمهم شكراً لنعمة شرفهم وأخذ بهدي علمائهم نجا من ظلمة المخالفات ، ومن تخلف عن ذلك غرق في بحر كفر النعم ، وهلك في مفاوز الطغيان - إلى أن قال :- وباب حطة يعني وجه تشبيههم بباب حطة أنّ الله تعالى جعل دخول ذلك الباب الذي هو باب أريحا أو بيت المقدس مع التواضع والاستغفار سبباً للمغفرة ، وجعل لهذه الأمة مودة أهل البيت سبباً لها...<sup>(١)</sup>.

إنّ حديث السفينة صريح وواضح لا لبس فيه ولا غموض ، وهو يلزم بالتمسك بأهل البيت ﷺ والأخذ بما أثر عنهم من أحكام الدين وشؤون شريعة سيّد المرسلين.

#### أهل البيت أمان للأمة

من الأدلة التي يتمسك بها على لزوم اتباع أهل البيت ﷺ قول رسول الله ﷺ : « النجوم أمان لأهل الأرض من الفرق ، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف ، فإذا خالفتها

قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس»<sup>(١)</sup>.

هذه بعض الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ وهي تنصّ وتلزم بالأخذ والعمل بما صدر عن أئمة الهدى ﷺ من أحكام وتعاليم إسلامية.

ما أثر عن الصحابة

أمّا ما أثر عن الصحابة من أحكام وتعاليم فقد ألحقه بعضهم بالسنة النبوية وأنه جزء لا يتجزأ منها ، وقد ذهب إلى ذلك الشاطبي ، قال : سنة الصحابة سنة يعمل بها ويرجع إليها<sup>(٢)</sup>.

ومما يستدلّ لهم على ذلك ما يروى عن النبي ﷺ أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم.

وهذا الحديث من الموضوعات ، قال فيه ابن حزم : حديث موضوع ، مكذوب ، باطل<sup>(٣)</sup>.

وتمسّكوا ببعض الأحاديث الموضوعية التي لا يصحّ الاعتماد عليها<sup>(٤)</sup> ، وبالإضافة لذلك فإنّ منهج الصحابة وسنتهم مختلفة كأشدّ ما يكون الاختلاف ، فالإمام أمير المؤمنين عليه السلام حينما تقلّد رئاسة الدولة الإسلامية عمد إلى تغيير مناهج الحكم الأموي ، فعزل جميع ولاته ، وأصدر مرسوماً بمصادرة جميع الأموال التي اختلسوها من بيت مال المسلمين ، وقبله عمر غير وبدل من مناهج سياسة أبي بكر وأحكامه ، فقد ساوى أبو بكر في توزيع الأموال الخراجية وغيرها ، وخالف ذلك عمر ، فقد فضّل بعض المسلمين على بعض ، وألغى المساواة بينهم ، ويرى المحقّقون أنّ هذه السياسة قد أوجدت نظام الطبقيّة بين المسلمين..

(١) الرياض النضرة ٢: ٥٢ ، وقريب منه في صحيح الترمذي ٢: ٣١٩. سنن ابن ماجه ١: ٥٢.

(٢) الموافقات ٤: ٧٤.

(٣) الأصول العامة للفقه المقارن: ١٣٨.

(٤) المصدر السابق: ١٣٨.

ومنع عمر المتعتين (متعة الحجّ ، ومتعة النساء) ، ولم يمنع عنهما أبو بكر ، إلى غير ذلك من الأحكام التي خالف فيها عمر منهج صاحبه أبي بكر .  
وعلى أي حال فقد أقام المتكلمون من الشيعة حشداً من الأدلة على أنّ السنة لا تشمل ما أثر عن الصحابة من أحكام ، وأنها مختصة بسنة النبي ﷺ وأهل بيته الذين هم سفن النجاة وعدلاً للذكر الحكيم .

### أنواع السنة

ونعني بها الطرق والوسائل التي تثبت بها السنة والتي يتميز بعضها عن بعض في حجّة السند ، فتارة يكون قطعياً ، وأخرى يكون ظنيّاً ، ونعرض - بإيجاز - لبيان ذلك .

### الخبر المتواتر

وهو أن يصل الخبر إلى مرتبة تفيد القطع بصدوره ، وعرفه الشهيد الثاني بقوله : هو - أي الخبر المتواتر - ما بلغت رواته في الكثرة مبلغاً أحالت العادة تواطئهم على الكذب ، وأضاف إلى ذلك قوله : ولا ينحصر ذلك - أي التواتر - بعدد خاص .  
ويشترط في الرواة الصدق والأمانة والعدالة ، أمّا عدد الرواة فقد ذهب بعض المحققين من علماء الأصول إلى عدم اشتراطه ، فربّما يحصل القطع بصدور الخبر من اثنين أو من أربعة ، والعمدة هو حصول القطع بصدوره .

### الخبر الواحد

واختلف الفقهاء في حجّة خبر الواحد ، فذهب جملة من الأعلام إلى عدم حجّيته كان منهم السيّد المرتضى وابن زهرة وابن إدريس وغيرهم ، وذهب آخرون إلى حجّيته ، وأنه خارج عن أصالة حرمة العمل بغير العلم ، ونشير - بإيجاز - إلى بعض أدلة الطرفين :

### أدلة المجوزين

واستدلّ المجوزون على العمل بخبر الواحد بما يلي من الأدلة :



## ١ - آية النفر

وهي قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ <sup>(١)</sup>.

دلّت الآية على وجوب الحذر عند إنذار المندرين من دون اعتبار إفادة خبرهم العلم لتواتر أو قرينة فيثبت وجوب العمل بخبر الواحد ، كما أنّ كلمة ( لعل ) في قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ بعد انسلاخها عن معنى الترجي تفيد كون مدخولها محبوباً ، وإذا ثبتت محبوبيته وحسنه ثبت وجوبه ، كما أنّ ظاهر الآية وجوب الإنذار ، وإذا ثبت وجوبه ثبت وجوب القبول. وذكر أستاذ المجتهدين الإمام الأنصاري تفصيلاً رائعاً للآية الكريمة كان بعضه ما ذكرناه <sup>(٢)</sup>.

## ٢ - آية النبأ

وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ <sup>(٣)</sup>.  
أمّا الاستدلال بالآية على حجّية خبر الواحد فمن وجهين :

الأول : أنّ الله تعالى علّق وجوب التثبت على مجيء الفاسق فينتفي وجوب التثبت عند انتفائه عملاً بمفهوم الشرط ، وإذا لم يجب التثبت عند مجيء غير الفاسق ، فإما أن يجب القبول وهو المطلوب ، أو الردّ وهو باطل ؛ لأنّه يقتضي أن يكون العادل أسوأ حالاً من الفاسق الثاني ، إنّه اجتمع في خبر الفاسق وصفان وهما كون الخبر خبيراً واحداً ، وأنّ الخبر خبر فاسق ، والذي يناسب التثبت هو كون الخبر خبر فاسق ، وحينئذٍ فإذا لم يجب التثبت عند خبر العادل فإمّا أن يجب القبول وهو المطلوب ، أو الردّ فيكون حال غير العادل أسوأ من خبر الفاسق.

(١) التوبة: ١٢٢.

(٢) فرائد الأصول ١: ١٢٧.

(٣) الحجرات: ٦.

## الأخبار

واستدلّ القائلون بحجّية خبر الواحد بطائفة من الأخبار كان منها ما يلي :

١ - روى الكشي بسنده عن سلمة بن أبي حبيبة ، قال له الإمام عليه السلام : « إنت أبان بن تغلب فإنه قد سمع مني حديثاً كثيراً ، فما روى لك عنّي فاروه عنّي... » ، دلت الرواية بوضوح على حجّية خبر الواحد.

٢ - روى عليّ بن المسيّب أنّه سأل الإمام عليه السلام عمّن يأخذ عنه معالم الدين؟ قال عليه السلام : « عليك بذكريا بن آدم المأمون على الدين والدنيا ».

٣ - روى شعيب العنقرقوفي أنّه سأل الإمام عليه السلام عمّن يرجع إليه؟ فقال عليه السلام : « عليك بالأسدي » - يعني : أبا بصير .

٤ - أرجع الإمام عليه السلام بعض أصحابه إلى زرارة فقال : « إذا أردت حديثاً فعليك بهذا الجالس » وأشار إلى زرارة .

٥ - روى ابن أبي الجهم أنّه قال للإمام الرضا عليه السلام : يجيئنا الرجلان وكلاهما ثقة بحديثين مختلفين ، ولا نعلم أيّهما الحقّ؟ قال عليه السلام : « إذا لم تعلم فموسع عليك بأيهما أخذت ».

٦ - « إذا سمعت من أصحابك الحديث وكلّمهم ثقة فموسع عليك حتى ترى القائم »..

إلى غير ذلك من الأخبار التي هي واضحة الدلالة ، وهي صريحة في جواز العمل بخبر الواحد... هذه بعض الأدلّة التي تمسك بها القائلون على حجّية خبر الواحد.

## أدلة المانعين

واستدلّ المانعون من الأخذ بخبر الواحد بكوكبة من الأدلّة كان منها :

## أولاً : الآيات

ودلّت على المنع من العمل مجموعة من الآيات الكريمة منها :

١ - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ <sup>(١)</sup> ، فقد نهت هذه الآية عن اتباع غير العلم الذي لا يوصل الإنسان إلى الواقع.

٢ - قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيْهِمْ مَا فَتَحْتُمْ نَادِيَّكُمْ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقد حذرت الآية من الوقوع في مهالك في الأخذ بقول الفاسق.

٣ - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ <sup>(٣)</sup> .

والآية صريحة في النهي عن اتباع الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً.. وقد أجاب الأصوليون عن هذه الآيات بأنها مخصصة بالأدلة التي ذكرناها سابقاً ، وما من عام إلا وقد خصّ.

#### ثانياً : الأخبار

وهي طائفة من الأحاديث منعت من العمل بخبر الواحد وهذه بعضها :

١ - روى محمد بن عيسى قال : أقراني داود بن فرقد الفارسي كتابه إلى أبي الحسن الثالث - يعني : الإمام الهادي عليه السلام - نسألك عن العلم المنقول عن آبائك وأجدادك - عليهم السلام أجمعين - قد اختلفوا علينا فيه ، فكيف العمل به على اختلافه ، فكتب عليه السلام الجواب بخطه وقرأته : « ما علمتم أنه قولنا فالزموه ، وما لم تعلموه فردوه إلينا ».

والرواية قد ألزمت بالعمل بما أثار عن أهل البيت عليه السلام إذا كان مشفوعاً بالعلم..

٢ - قال عليه السلام : « لا يصدق علينا إلا ما يوافق كتاب الله وسنة نبيه ».

حكى الرواية أنّ الخبر لا يؤخذ به على إطلاقه ما لم يؤيد بالكتاب والسنة.

(١) الإسراء : ٣٦.

(٢) الحجرات : ٦.

(٣) يونس : ٣٦.

٣ - قال عليه السلام لمحمد بن مسلم : « ما جاءكم من رواية من برّ أو فاجر لا يوافق كتاب الله فلا تأخذ به ».

٤ - قال أبو جعفر عليه السلام لبعض أصحابه : « ما جاءكم عنّا فإن وجدتموه موافقاً للقرآن فخذوا به ، وإن لم تجدوه موافقاً فردّوه ، وإن اشتبه الأمر عندكم فقفوا عنده ، وردّوه إلينا حتى نشرح من ذلك ما شرح لنا ».

٥ - روى هشام بن الحكم عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال : « لا تقبلوا علينا حديثاً إلّا ما وافق الكتاب والسنة ، أو تجدوا معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة ، فإنّ المغيرة بن سعيد - لعنه الله - دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا وسنة نبيّنا صلّى الله عليه وآله » <sup>(١)</sup>.

حكّت هذه الأخبار وغيرها على طرح الخبر المخالف للكتاب العزيز والسنة المقدّسة ، والمراد من المخالفة ليست هي المخالفة على وجه التباين الكلّي بحيث يستحيل الجمع بينهما؛ إذ لا يصدر من الوضّاعين والكذّابين ذلك ، بل المراد هي المخالفة للظواهر على نحو العموم والخصوص وغير ذلك . وقد أجاب الأصوليون عن هذه الأخبار بأنّ بعضها أخبار آحاد لا يمكن الاستدلال بها على المدّعى .

هذا بالنسبة إلى الرواية الأولى وهي رواية محمد بن عيسى ، وأمّا بالنسبة إلى أخبار العرض على كتاب الله تعالى فإنّها وإن كانت متواترة بالمعنى إلّا أنّها طائفتان عند التحليل ، وهما :

الأولى : دلّت على طرح الخبر المخالف للكتاب العزيز .  
وأجيب عنها بأنّها لا تدلّ على المنع من العمل الذي لا يوجد مضمونه في الكتاب والسنة ، كما أنّ مخالفة عمومات الكتاب والسنة لا تعدّ من المخالفة في شيء .

الثانية: وهي الأمرة بطرح ما لا يوافق الكتاب ، أو لم يوجد عليه شاهد من كتاب الله العظيم .

فالجواب عنها أنا نقطع بصدور طائفة من الأخبار غير موافقة للكتاب ، أو أنها تحمل على الأخبار الواردة في أصول الدين... ومضافاً لذلك فإنها لا تقاوم الأدلة الدالة على حجّية خبر الثقة ، فلا بدّ حينئذٍ من تأويلها حسب ما ذكر أستاذ المجتهدين الإمام الأنصاري.

### ثالثاً: الإجماع

الدليل الثالث الذي استدلّ به المانعون من العمل بخبر الواحد هو الإجماع ، وقد ادّعاء السيّد المرتضى في مواضع من كلامه ، وجعله بمنزلة القياس في كون ترك العمل به معروفاً من مذهب الشيعة.

وأجيب عنه :

أولاً: أنّ هذا الإجماع لم يتحقّق إلّا بنقل السيّد ، وذلك تعويل على خبر الواحد. ثانياً: أنّ هذا الإجماع معارض بدعوى جماعة من أعلام الفقهاء على حجّية خبر الواحد ، وكان من النافلين للإجماع شيخ الطائفة الشيخ الطوسي رحمه الله تعالى.

### أنواع الخبر

أمّا أنواع خبر الواحد وأقسامه فهي كما يلي :

#### ١ - الصحيح

وهو ما اتصل سنده إلى الإمام المعصوم عليه السلام بنقل عدل ثقة إمامي في جميع سلسلة الحديث ، وأن يكون العدل ضابطاً لنصّ الحديث ، أمّا معرفة عدالة الراوي فتارة تكون بشهادة عدلين ، وأخرى بشهادة عدل واحد يفيد قوله الظنّ.

#### ٢ - الحسن

وهو ما اتصل سنده إلى الإمام المعصوم عليه السلام بإمامي ممدوح غير معارض بدمّ.

### ٣ - الموثق

وهو ما اتصل سنده إلى الإمام المعصوم عليه السلام ، ونصّ الفقهاء وغيرهم على توثيق الراوي مع فساد عقيدته.

### ٤ - الضعيف

وهو الخبر الذي يرويه شخص متهم في عقيدته وسلوكه وموسوم بالكذب .  
هذه بعض أنواع خبر الواحد ، وقد ذكرت له أنواع أخرى ذكرها علماء الدراية.

### الاحتياط في نقل الحديث

واحاط علماء الشيعة كأشد ما يكون الاحتياط في نقل الحديث ، فلم يؤمنوا بأي حديث إلا بعد التأكد من سلامته وصحته ، وهذه بعض البوادر التي تدل على ذلك :  
١ - روى حمدويه بن نصير ، عن أيوب بن نوح : أنه دفع إليه دفترأ فيه أحاديث محمد بن سنان ، وقال له ولمن كان معه : إن شئتم أن تكتبوا ذلك فافعلوا ، فإني كتبت عن محمد بن سنان ، ولكن لا أروي لكم عنه شيئاً ، فإنه قال قبل موته : كل ما أحدثكم به فليس بسمع ولا برواية وإنما وجدته <sup>(١)</sup>.

أرأيتم كيف احتاط في الرواية عمّن لم يسمع من الثقات ، وإنما وجد الرواية في الكتب فلم يستسغ روايتها.. حقاً إن هذا هو الإيمان الوثيق ، وهذه هي أمانة النقل.

٢ - ومن الشواهد على احتياط رواة الشيعة في نقلهم للحديث ما روي عن الحسن ابن فضال أنه لم يرو كتب أبيه الحسن عنه ، مع مقابلتها عليه ، وإنما كان يرويها عن أخويه محمد وأحمد عن أبيه ، وقد اعتذر عن عدم روايتها عنه بأنه كان يوم مقابلته للحديث مع أبيه إنه كان صغير السن ليست له معرفة تامة بالروايات ، وقرأها على أخويه ثانياً.

٣- وكان من احتياطهم الشديد في نقل الأخبار أنهم كانوا يتحرّزون من الرواية إذا رواها أحد الضعفاء أو كان ممن يعتمد على المراسيل ، كما كانوا لا يأخذون برواية من يعمل بالقياس. كما توقّفوا في روايات من كان على الحقّ ثم عدل عنه ، وإن كانت كتبه قد دوّنها في أيام استقامته ككتب بني فضال ، وقد سألو الإمام الحسن العسكري عليه السلام عنها ، وقالوا له : إنّ بيوتنا مليئة منها ، فأذن لهم الإمام عليه السلام بالعمل بها ؛ لأنّهم رووها في حال استقامتهم.

ويقول الإمام الأنصاري رحمته الله : إنّ الأمارات الكاشفة عن اهتمام أصحابنا في تنقيح الأخبار في الأزمنة المتأخّرة عن زمان الإمام الرضا عليه السلام أكثر من أن تحصي للمتّبع.

### ثالثاً : الإجماع

الإجماع ثالث الأدلّة التي استند إليها الفقهاء في استنباطهم للحكم الشرعي وله عند بعضهم كيانه المتميّز والمستقلّ في الحجّية ، وأنكره بعض آخر من الفقهاء ، ونعرض -إجمالاً- إلى بيان معناه في الاصطلاح وإلى الاختلاف في حجّيته ، وغير ذلك ممّا يرتبط به من بحوث.

#### تعريف الإجماع

أمّا الإجماع - في الاصطلاح - فقد عرّف بتعاريف متعدّدة ومختلفة كان من بينها :

١ - الإجماع : هو اتفاق أمة محمّد صلّى الله عليه وآله على وجه يشمل قول المعصوم عليه السلام <sup>(١)</sup>.

٢ - الإجماع : هو اتفاق من يعتبر قوله من الأئمة <sup>(٢)</sup>.

٣ - الإجماع : اتفاق أهل المدينة <sup>(٣)</sup>.

٤ - الإجماع : اتفاق أهل الحرمين مكّة والمدينة.

وهناك آراء أخرى لا تحمل أي طابع من التحقيق أعرضنا عن ذكرها.

(١) و (٢) فرائد الأصول : ٤٤.

(٣) أصول الفقه (الخضري) : ٢٧٠. الإحكام في أصول الأحكام (ابن حزم) : ١ : ١٤٤.

### الإجماع عند الشيعة

الإجماع إنما يعنى به ويكون حجة ودليلاً عند الشيعة الإمامية إذا كان الإمام عليه السلام من جملة المجمعين ، قال العلامة الحلي : إنّ الإجماع عندنا حجة لاشتماله على قول المعصوم ، وكلّ جماعة قلّت أو كثرت كان قول الإمام في جملة أقوالها فإجماعها حجة لا لأجل الإجماع<sup>(١)</sup>.

وقال السيّد المرتضى : إذا كان مدرك حجة الإجماع كون الإمام عليه السلام فيهم فكلّ جماعة قلّت أو كثرت وكان قول الإمام معهم فإجماعهم حجة ، وإنّ خلاف الواحد أو الاثنين إذا كان الإمام من بينهما فلا يعتدّ به<sup>(٢)</sup>.

### الطريق لمعرفة الإمام

أمّا الطريق لمعرفة أنّ الإمام عليه السلام في جملة المجمعين فتتلخّص بما يلي :

١ - الحسّ : وهو أن يعلم بدخول الإمام عليه السلام في جملة المجمعين ، وهذا في غاية القلّة ، فإنّه لم يتفق لمن حكى الإجماع ذلك.

٢ - قاعدة اللطف : حكى الشيخ الطوسي رحمته الله هذه القاعدة وحكاها غيره ، وخلاصتها أنّه يجب على الإمام المعصوم عليه السلام إظهار الواقع ، فلو كان المجمعون على خلافه لألقى الخلاف بينهم ، وقد تعرّض الأعلام إلى تنفيذ هذه القاعدة.

٣ - الحدس : وهو أن يحصل العلم بقول الإمام عليه السلام مع المجمعين ؛ وذلك إمّا أن يحصل الحدس من مبادئ محسوسة بحيث يكون الخطأ فيها من قبيل الخطأ في المحسوسات ، وإمّا أن يحصل الحدس من أخبار جماعة يعلم بعدم اجتماعهم على الخطأ . وقد ناقش الأعلام في ذلك كما ناقشوا في الحسّ وقاعدة اللطف.

### أنواع الإجماع

أمّا الإجماع فأنواعه وصوره كما يلي :



### ١ - الإجماع المحض :

وهو أن يبذل الفقيه جهده في تتبع فتاوى الفقهاء على مسألة ، فإذا رآهم متفقين في الفتوى عليها فيحكي الإجماع.

### ٢ - الإجماع المنقول :

وهو الإجماع المنقول بخبر الواحد ، فمن يذهب إلى حجّة الخبر الواحد يقول بحجّيته ؛ لأنه من مصاديقها .  
وقد عرضت كتب الأصول بصورة شاملة إلى الإجماع بجميع أنواعه وصوره ، ونقتصر في البحث عنه بذلك العرض الموجز.

### الشهرة

من الأدلة التي قيل بحجّيتها بالخصوص هي الشهرة ، وهي على أقسام :

### ١ - الشهرة في الرواية

وهي عبارة عن اشتهار الرواية بين الفقهاء بأن يكون الرواة لها كثيرين.

### ٢ - الشهرة العملية

وهي أن يشتهر العمل بالرواية ، ويعلم ذلك من استناد المفتين إليها في الفتوى.

### ٣ - الشهرة في الفتوى

وهي عبارة عن اشتهار الفتوى عند الفقهاء ، وقد استدلّ على حجّتها بمرفوعة زارة : « خذ بما اشتهر بين أصحابك ، واترك الشاذّ النادر » ، ونوقش في هذه الرواية بأنّها مختصة بالشهرة في الرواية .

وهناك أدلة أخرى استدلّ بها على حجّة هذه الشهرة ، إلّا أنّها محل نظر عند الأصوليين ، وذهب الأستاذ الخوئي إلى عدم حجّيتها.

## دليل العقل

أما العقل فهو أفضل جهاز خلقه الله تعالى ووهبه للإنسان ليكون له موجهاً ورائد خير يهديه للتي هي أقوم ، ففي الحديث : « أنه ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان » وأنه الرسول الباطن ، وذهب بعض العلماء إلى الملازمة ما بين حكم الشارع وحكمه ، وأنكر آخرون ذلك ، كما أنكر بعضهم أن يكون أصلاً متميزاً قائماً بنفسه يستنبط به الحكم الشرعي<sup>(١)</sup>.

والذي لا شبهة فيه أن للعقل مداركه وأصالته في بحوث علم الفقه وأصوله ، فقد استند الفقهاء والأصوليون في كثير من المسائل إلى حكم العقل ، وهذه بعض الأمثلة منها :

١ - البراءة العقلية : وهي قبح العقاب بلا بيان ، وقد استندوا إليها في رفع الحكم المشكوك وعدم المؤاخذه عليه ، ويرتبط بهذه القاعدة كثير من الأحكام ذكرت على وجه التفصيل في الأصول العملية.

٢ - الملازمة بين الأمر بالشيء والنهي عن ضده ، وذلك كمن رأى نجاسة في بعض المساجد ، فإنه مأمور ومكلف بإزالتها ، فلو ترك إزالتها وصلّى كانت صلاته فاسدة.

٣ - تقديم الأهم على المهم في موارد التزاحم الذي يوجد للملاك تاماً في كلا الحكمين ، ولكن لا يتمكّن المكلف على امتثالهما دفعة واحدة ، فيجب عليه الإتيان بالأهم ، وذلك كإنقاذ الغريقين ، إذا كان المكلف لا يستطيع إنقاذهما فإنّ الأهم منهما يتقدّم على غيره ، كما إذا كان أحدهما عالماً تقيّاً والآخر ليس له رصيد من الإيمان ، فإنّ إنقاذ العالم يتقدّم عليه.

(١) كفاية الأصول (الإمام المحقق الشيخ كاظم الخراساني) : ٣٤٣.

- ٤ - وكحكمه بوجوب مقدّمة الواجب ، وذلك فيما أوجب الشارع حكماً على المكلفين ، وله مقدّمات فإنّها تجب عليهم.
- ٥ - وكحكمه بإجزاء الإتيان بالمأمور به ظاهراً أو اضطراراً عن الحكم الواقعي ، وأمثلة ذلك ذكرت في كتب الأصول.
- ٦ - ومن أمثلة ذلك حكم العقل بفساد المنهي عنه كالصلاة في المكان المغصوب مع علم المصلّي بالغصب ، وعدم الاضطرار إلى الصلاة فيه .  
وعلى أي حال فقد استند الفقهاء في كثير ممّا أفتوا به إلى حكم العقل ، وقد حفلت مصادر الفقه والأصول بكثير من المسائل المنوطة بحكم العقل.

#### القياس

أمّا القياس فقد اعتبره أبو حنيفة وجعله أصلاً من أصول التشريع الإسلامي ، ورفضت الإمامية وفريق من المعتزلة اعتباره ؛ لأنّ الحكم المستنبط منه ظنيّ ، وإنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً... ونعرض - بإيجاز - لبعض البحوث المرتبطة به.

#### أركان القياس

- أمّا الأركان التي يتكوّن منها القياس حتى يكون حجّة عند القائلين به فهي أربعة :
- ١ - الأصل : ويسمّى المقيس عليه ، وهو الذي ورد فيه النصّ على حكمه .
  - ٢ - الفرع : ويسمّى المقيس ، وهو الذي يطلب معرفة حكمه بطريق القياس .
  - ٣ - العلّة : المشتركة بين الأصل والفرع والتي من أجلها يحكم على الفرع بحكم الأصل .

٤ - الحكم الشرعي : وهو الذي يراد إثباته للفرع .  
ويشترط في القياس أن يكون الحكم في الأصل شرعياً لا لغوياً ، ومن الطريف أنّ أبا حنيفة قال لشخص : توضأت وصلّيت . فسأله الشخص عن الهمزة في ( صلّيت ) فأجابه أنّ المعطوف على المهموز يكون مهموزاً ، فسخر منه الشخص وقال له : يا أبا

حنيفة ، أفسدت ديننا بالقياس ، فهل تريد أن تفسد لغتنا ؛ لأن اللغات لا يجري فيها القياس .

#### قياس منصوص العلة

أما القياس الذي هو منصوص العلة ، فقد ذهب العلامة الحلبي إلى حجّيته ، وذهب آخرون إلى عدم حجّيته ؛ لأنّ الدليل الدالّ على حرمة القياس شامل له ، وعند التأمل نرى أنّ منصوص العلة حجة ، مثلاً : لو قال الشارع : ( حرمت الخمرة لإسكارها ) ، فقد أناط الحرمة بالإسكار لا بلونها ولا بشيء آخر من خصائصها ، فالعلة عند الشارع في تحريمها هي الإسكار ، فإذا وجدت هذه العلة في النبيذ فهو أيضاً حرام ، ولا يقتصر الحكم على الخمر ، بل تعدّاه إلى غيره .

#### القياس الممنوع

أما القياس الممنوع عند الإمامية فهو غير منصوص العلة ، وهو الذي لا ظهور في عموم الموضوع ، فإنّ تعدّي الحكم إلى غيره ليس بحجة ، وقد تضافرت الأخبار عن أئمة الهدى عليه السلام في المنع عنه كقوله عليه السلام : « إنّ السنّة إذا قيست محقّ الدين » ، وقوله عليه السلام : « ما يفسده - أي القياس - أكثر ممّا يصلحه » ، وغير ذلك من الأخبار التي دلّت على عدم جواز الركون إليه .

#### المصالح المرسلة

ونعني بها كلّ مصلحة غير مقيدة بنصّ من الشارع يدعو إلى اعتبارها أو عدم اعتبارها ، إلّا أنّ في الأخذ بها جلب نفع أو دفع ضرر<sup>(١)</sup> .  
وذهبت الأحناف والشافعية إلى عدم اعتبارها ، وذهب مالك والحنابلة إلى اعتبارها .

(١) تاريخ الفقه الإسلامي ، نظرية الملكية والعقود : ٢١٠ .

### شروطها

واشترط مالك للأخذ بها شروطاً ثلاثة وهي :

- ١ - أن يكون في الأخذ بها رفع حرج لازم على الأمة.
- ٢ - أن تكون المصلحة في ذاتها معقولة جرت على الأوصاف المناسبة المعقولة بحيث إذا عرضت على أهل العقول تلقوها بالقبول.
- ٣ - أن لا تعارض هذه المصلحة مقصداً من مقاصد الشريعة ولا دليلاً من أدلتها<sup>(١)</sup>.

ولم يقرّ معظم فقهاء المسلمين هذا الأصل ، فإنّ الشريعة بنصوصها الثرية تغني عن اللجوء إلى هذا الأصل.

### الاستحسان

وهو العدول عن قياس وضّحت علته إلى قياس خفيت علته ، أو هو عدول المجتهد عن حكم كلي إلى حكم استثنائي لدليل رجح إليه هذا العدول.

وقد رفضت الإمامية القول بالاستحسان ؛ لأنه إمّا قياس حنفي ، وإمّا حكم تقتضيه المصلحة التي يدركها المجتهد عن طريق الاستنباط ، وهو في كلتا الحالتين من الاجتهاد بالرأي الذي يخطئ ويصيب ، ولكنه لا يغني من الحق شيئاً<sup>(٢)</sup>.

وقد عرض السيّد محمد تقي الحكيم بصورة موضوعية وشاملة إلى تنفيذ هذه القواعد وعدم جواز الاعتماد عليها في كتابة (الأصول العامة للفقه المقارن) ، وبهذا تطوي الحديث عن مصادر التشريع الإسلامي ، وقد أوجزنا الحديث في بعض بحوثه.

(١) الاعتصام (الشاطبي) ٢ : ١١٠ - ١١١.

(٢) تاريخ الفقه الإسلامي : ١١٠.



**الاجتهاد بين الإيجاب والسلب**

---



لعلّ من المفيد جدّاً هو البحث عن الاجتهاد الذي كثر فيه الجدل بين الإيجاب والسلب ، فتبنّت الشيعة فتحه ، وكان ذلك من الإبداع والتطوّر عندهم حسبما يقوله المحقّقون ، وأغلقت بابه بقيّة المذاهب الإسلامية الأخرى ، وكان ذلك من الجمود ؛ لأنّ معناه ومفاده أنّه لم يبقَ بين العلماء من تتوفّر فيه شروط المجتهد ، وهذا من الوهن بمكان ، وسنعرض لتفصيل ذلك في البحوث الآتية .

وعلى أي حال فإنّنا نعرض - بإيجاز - لمعنى الاجتهاد وما يرتبط به وبالصفات التي يجب أن تتوفّر في المجتهد ، وغير ذلك من البحوث .

### في اللغة

أمّا المدلول اللغوي لكلمة الاجتهاد فإنّه مأخوذ من الجهد (الطاقة) ، وبالفتح المشقّة<sup>(١)</sup> . والاجتهاد المبالغة في الجهد<sup>(٢)</sup> ، ومن المؤكّد أنّه لا يكون إلّا في الأمور التي تحتاج إلى مشقّة وعناء ، فلا يقال لمن حمل قرطاساً خفيفاً إنّهُ اجتهد في حمله .

### في الاصطلاح

أمّا الاجتهاد في اصطلاح الفقهاء فقد عرّف بتعاريف متعدّدة كان منها ما يلي :

أولاً: عرّفه الإمام الشيخ محمّد حسين الأصفهاني بأنّه تحصيل الحجّة على الحكم

---

(١) لسان العرب ٣: ١٣٣ .

(٢) الاجتهاد والتقليد: ٢ .



الشرعي عن ملكة استنباط الحكم ولو لم يستنبط أصلاً... وأوضح ذلك بقوله : إنّ المراد بالملكة هنا هي القوة الحاصلة للنفس على استنباط الحكم من دليله بسبب معرفة العلوم الدخيلة في الاستنباط.

ثانياً: عرّفه العلامة والحاجبي بأنّه استفراغ الوسع في تحصيل الظنّ بالحكم الشرعي<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: عرّفه الآمدي بأنّه استفراغ الوسع في طلب الظنّ بشيء من الأحكام الشرعية على وجه يحسّ من النفس العجز عن المزيد عليه<sup>(٢)</sup>.

هذه بعض التعاريف التي حدّد بها الاجتهاد ، وقد أورد على بعضها بعدم الانعكاس أو الاطراد<sup>(٣)</sup> ، وليس من المهمّ في شيء تحقيق الصحيح منها ، فإنّ عامّة التعاريف التي تذكر لمثل هذه العناوين تعاريف لفظية ، وليست بحدود حقيقية ملّمة بالعناصر التي يتكوّن منها المعرّف ، كما أفاد ذلك بعض علماء الأصول.

### مقدمات الاجتهاد

المحنا في البحوث السابقة إلى بعض العلوم التي يتوقّف عليها الاختصاص بعلم الفقه ، ونعيد الكلام فيها إتماماً للفائدة وإحاطةً بما يتوقّف عليه الاجتهاد ، وهي كما يلي :

#### ١ - علم اللغة

من المقدمات التي يتوقّف عليها الاجتهاد علم اللغة ، وذلك بمعرفة معاني الألفاظ مأخوذة في تراكيب الكلام كالصعيد والغسل والمسح والكعب ، ونحو ذلك من الألفاظ ، ولو كان الاستعمال فيها مجازاً.

(١) مجمع البحرين ٣ : ٣٢.

(٢) إرشاد الفحول : ٢٥٠.

(٣) شرح كفاية الأصول (المحقّق الشيخ عبدالحسين الرشتي) ٢ : ٣٤٧.

## ٢ - الصرف

ونعني بها المعاني التي وضعت لها الهيئات الاشتقاقية كهيئات الأفعال الماضية ، وأفعال الفعل المضارع ، وهيئات فعل الأمر ، وهيئات أسماء الفاعل والمفعول وغيرهما.

## ٣ - علم النحو

والبحث فيه عن تراكيب الكلام كالمبتدأ ، والخبر ، والفاعل ، والمفعول ، والفعل بأقسامه الثلاثة ، والإضافة ، والبدل ، والعطف ، وأمثال ذلك ، وتختلف الجمل باختلاف التراكيب واختلاف الحركات ، فقد تكون جملة استفهامية ، وقد تكون تعجبية ، ودلالة الحركات المختلفة تستفاد من علم النحو.

## ٤ - علم المنطق

ويعرف به شرائط البرهان ، وكيفية تركيبه وامتيازه عن سائر الأقيسة من الجدل والخطابة والسفسطة ، وغير ذلك من المواد التي يتوقف عليها الاستدلال.

## ٥ - معرفة آيات الأحكام

وهي خمسمائة آية على ما صرح بها بعضهم ، ومعرفة الأحاديث المتعلقة بها.

## ٦ - علم الأصول

وهو من أهمّ المقدمات التي يتوقف عليها استنباط الحكم الشرعي ، وبدونه لا يكاد يحصل الاجتهاد للمجتهد<sup>(١)</sup>.

هذه بعض العلوم التي يحتاج إليها المجتهد ، وبدون معرفتها لا يحصل الاجتهاد.

## فتح باب الاجتهاد

والشيء الذي تميّزت به الشيعة الإمامية عن بقية المذاهب الإسلامية الأخرى هو ذهابهم إلى فتح باب الاجتهاد، الأمر الذي يدلّ على عمق تفكيرهم وأصاله ما يذهبون إليه ، فإنّ الفقه الإسلامي متفاعل مع الحياة ومستمر في عطاءه على امتداد التاريخ ، وليس من الحكمة في شيء أن يقف التشريع الإسلامي مكتوفاً ومغلقاً أمام الأحداث المستجدة التي يبتلي بها الناس ، ففي كلّ حدث وواقعة لله تعالى فيها حكم ، وليست أحكام الإسلام وتشريعاته مختصة بزمان دون زمان ، ولا يقوم دون آخرين ، وإنّما هي مستمرة ومشرقة حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها .

وعلى أي حال فإنّنا نعرض - بإيجاز - إلى بعض المسائل المستحدثة التي أفتى بأحكامها فقهاء الإمامية ، وهي تنمّ عن مدى أصالة فقه أهل البيت عليهم السلام وسعة شموله وآفاقه .

## المسائل المستحدثة

وهذه شذرات من المسائل المستحدثة التي لم تكن موجودة في عصر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ، ولا في عصر أوصيائه أئمة الهدى عليهم السلام ، وفيما يلي ذلك :

### زراعة أعضاء الموتى في أجسام الأحياء

تطوّر الطبّ في هذا العصر وبلغ القمة فيما أبدعه من الاكتشافات الحديثة ، فقد طوى بما اكتشفه من المضادّات الحياتية كالبنسلين والاسترومابسين وغيرهما الكثير من الأمراض التي كانت تؤدّي بالملايين من بني الإنسان كالتييفرويد والتهاب الأمعاء والتهاب الرئة وغيرها من الأمراض الفتّاكة ، وكان من أبداع ما توصّل إليه الأطباء غرس الأعضاء كغرس الكلية ، وذلك بأخذها من ميت أو من حيّ إلى حيّ ، ويتفرّع على ذلك بعض الفروع الفقهية التي منها .

### مشروعية ذلك

لقد اهتمّ الإسلام اهتماماً بالغاً بحياة الإنسان وإنقاذه من المرض ، فإذا توقّفت حياته على زرع كلية في جسمه مبانة من حيٍّ أو ميّت فإنّه يجوز ذلك ، وقد دلّت على ذلك رواية زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام قال : سأله أبي وأنا حاضر عن الرجل يسقط سنّه فيأخذ سن إنسان ميّت فيجعل له مكانه قال عليه السلام : « لا بأس »<sup>(١)</sup> ، وهي صريحة في الجواز؛ إذ لا فرق بين جزء وجزء آخر من بدن الإنسان.

### بيع أعضاء الميّت

وتضافرت الأخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بأنّ ثمن الميتة سحت<sup>(٢)</sup> ، فلا يجوز المعاوضة عليه<sup>(٣)</sup>.

### طهارة عضو الميّت بعد غرسه

إنّ جميع بدن الإنسان الميّت نجس قبل غسله ، فإذا فصلت بعض أعضائه كاليد - مثلاً - وغرست في جسم إنسان حي مقطوع اليد وسرت فيها الحياة فإنّها تكون طاهرة وذلك بعد غسلها ، فقد صارت جزء من إنسان حي ، وخرجت عن عنوان الميتة ، فتجوز الصلاة فيها ، وخرجت عن كونها جزءاً من الميتة.

### بيع الدم

أمّا بيع الدم بصورة مطلقة فقد دلّت على المنع عنه مرفوعة أبي يحيى الواسطي قال : مرّ أمير المؤمنين عليه السلام بالقصابين فنهاهم عن بيع سبعة أشياء ، كان منها الدم<sup>(٤)</sup>.

(١) الوسائل: ج ٤، ب ٣١ من أبواب لباس المصلّي، ح ٤.

(٢) الوسائل: ج ١٧، الباب ٥ من أبواب ما يكتسب به، ح ٥.

(٣) المسائل المستحدثة: ١٤٥.

(٤) الوسائل: ج ٢٤، ب ٣١ من أبواب الأطعمة المحرّمة، ح ٢.

وذهب الفقيه المحقق السيّد محمدصادق الروحاني - دامت بركاته - إلى جواز بيع دم الإنسان ؛ وذلك لما فيه من الفائدة العظمى ، ومضافاً إلى ذلك فإنّ المنع إنّما وقع على البيع لا على الصلح<sup>(١)</sup>.

### تشریح المیت لتعلّم الطبّ

أحاط الإسلام الإنسان بهالة من التكریم والتعظيم في حياته وبعد موته ، فحرّم المثلة فيه كما حرّمها بصورة متّسعة ولو بالكلب العقور ، كما روى ذلك الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن أخيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، إلّا أنّ سماحة الفقيه السيّد محمدصادق الروحاني جوّز التشریح لتعلّم الطبّ ، فإنّ التشریح ممّا يتوقّف عليه تعلّم الطبّ الموجب لحفظ حياة المسلمين ونجاتهم من الأمراض ، ولا ريب في أنّ هذا غرض مطلوب للشارع ومصلحته أقوى من مفسدة التشریح ، وحمل الأخبار الدالة على أنّ المثلة حرام ولو بالكلب العقور على ما إذا كانت المثلة من أجل التشفّي والانتقام ، وهذا الرأي لا يخلو من عمق وأصالة ، كما أجاز تشریح المیت لكشف الجريمة<sup>(٢)</sup>.

### تحديد النسل

من المسائل المستحدثة تحديد النسل ، وقد أفتى سماحة المرجع الديني السيّد علي السيستاني - دامت بركاته - بجواز ذلك ، قال : يجوز للمرأة استعمال ما يمنع الحمل من العقاقير المعدّة لذلك بشرط ألاّ يلحق بها ضرراً بليغاً ، ولا فرق في ذلك بين رضا الزوج به وعدمه . كما أفتى بجواز استعمال اللولب المانع من الحمل ، ولكن بشرط ألاّ يستتبع تلف النطفة بعد انعقادها ، فإنّ الأحوط الاجتناب عنه<sup>(٣)</sup>.

(١) المسائل المستحدثة: ١٢٨ ، وأحاط الإمام الأنصاري المسألة تفصيلاً في كتاب المكاسب.

(٢) المصدر السابق: ٢٢٠.

(٣) منهاج الصالحين ، العبادات: ٤٦٠ - ٤٦١.

كما أفتى سماحته بكوكبة من المسائل المستحدثة كان منها هذه العناوين في أعمال المصارف والبنوك:

- ١- الاقتراض.
- ٢- الاعتمادات.
- ٣- خزن البضائع.
- ٤- بيع البضائع عند تخلف أصحابها عن تسلمها.
- ٥- الكفالة عند البنوك.
- ٦- بيع السهام.
- ٧- بيع السندات.
- ٨- الحوالات الداخلية والخارجية.
- ٩- جوائز البنوك.
- ١٠- تحصيل الكمبيالات.
- ١١- بيع العملات الأجنبية وشراؤها.
- ١٢- السحب على المكشوف.
- ١٣- خصم الكمبيالات.
- ١٤- العمل لدى البنوك.
- ١٥- عقد التأمين.
- ١٦- السرقة.

وقد عولجت هذه المسائل على ضوء الشريعة الإسلامية ، وكان ذلك من المشرقة لفتح باب الاجتهاد الذي تبنته الشيعة الإمامية.

إنّ فتح باب الاجتهاد يعود بالخير العميم على المسلمين ، ويكشف بصورة واضحة مدى أصالة الفقه الإسلامي الذي عالج بصورة موضوعية وشاملة جميع قضايا الإنسان وشؤونه.

## أنواع الاجتهاد

أما الاجتهاد فينقسم إلى نوعين حسبما ذكر علماء الفقه والأصول وهما:

### ١ - الاجتهاد المطلق

أما الاجتهاد المطلق فهو ما يقتدر به المجتهد على استنباط الأحكام الفعلية من إمارة معتبرة أو أصل معتبر عقلاً أو نقلاً في الموارد التي لم يظفر بها<sup>(١)</sup>.

### ٢ - التجزي في الاجتهاد

وقد عرّفه المحقق الكبير الآخوند الخراساني بقوله: والتجزي هو ما يقتدر به على استنباط بعض الأحكام ، وذلك كالاكتفاء في كتاب الصلاة أو الصوم دون بقية أبواب الفقه . وقد أشكل على ذلك بأن ملكة الاستنباط أمر بسيط غير قابل للتجزئة كسائر الكيفيات النفسية ، والقابل للتجزي هو الكم .

وقد ردّه أستاذنا الإمام الخوئي ليس في الاجتهاد تجزئة الكيفية ، بل التجزي في المتعلق سعة وضيقاً ، ونظير ذلك وافر جداً كملكة الشجاعة وغيرها ، فإنها قد تتسع وقد تضيق باعتبار متعلقاتها ، وليس مرادنا من التجزي في الاجتهاد أن الاقتدار ينصف أو يكون أرباعاً أو غير ذلك<sup>(٢)</sup>.

وعلى أي حال فإن التجزي في الاجتهاد هو أمر وجداني لا سبيل لإنكاره.

### سد باب الاجتهاد

وأغلقت أبواب الاجتهاد في أواخر القرن الرابع الهجري وحصر الرجوع إلى خصوص المذاهب الأربعة ، وقد أغلقت بذلك منافذ التفكير ، وأصيب الفقه

(١) كفاية الأصول ، الجزء الثاني (باب الاجتهاد): ٥٣٠.

(٢) الرأي السديد في الاجتهاد والتقليد والاحتياط والقضاء : ١٣.

الإسلامي بنكسة ، وذكرت لسدّ باب الاجتهاد عوامل<sup>(١)</sup> كان من أسدها ما ذكره السيّد محمّد تقي الحكيم بقوله : والظاهر أنّ سياسة الحكم في تلكم العصور كانت تخشى من العلماء ذوي الأصالة في الرأي والاستقامة في السلوك - وهم لا يهادنون على ظلم ، ولا يصبرون على مفارقة - فأرادت قطع الطريق على تكوين أمثالهم بإماتة الحركة الفكرية من أساسها ، وذلك بسدها لأهمّ منبع من منابعها الأصلية وهو الاجتهاد<sup>(٢)</sup>.

وهذا الرأي وثيق للغاية ، فإنّ الحكومات القائمة في تلك العصور قد جهدت في ظلم الناس وإرغامهم على ما يكرهون ، ولم يكن أمامها إلّا فقهاء المسلمين الذين احتلّوا عواطف القلوب ، وكانوا شوكة في عيون أولئك السلاطين ، فأرادوا إخماد ذلك النور ، فأغلقوا أبواب الاجتهاد.

#### المطالبة بانفتاح الاجتهاد

وأدرك كبار علماء المسلمين من الأزهريين وغيرهم مدى الحاجة إلى فتح باب الاجتهاد ومتابعة الشيعة في هذه الظاهرة ، وكان من بين هؤلاء الأعلام :

##### ١ - السيّد رشيد رضا

قال السيّد رشيد رضا : ولا نعرف في ترك الاجتهاد منفعة ما ، وأمّا مضاره فكثيرة ، وكلّها ترجع إلى إهمال العقل ، وقطع طريق العلم ، والحرمان من استغلال الفكر ، وقد أهمل المسلمون كلّ علم بترك الاجتهاد فصاروا إلى ما نرى...<sup>(٣)</sup>.

##### ٢ - أحمد أمين

قال أحمد أمين : وقد أصيب المسلمون بحكمهم على أنفسهم بالعجز وقولهم

(١) خلاصة التشريع الإسلامي (عبد الوهاب خلاف) : ٣٤١.

(٢) الأصول العامة للفقهاء المقارن : ٦٠١.

(٣) الوحدة الإسلامية : ٩٩.



بإقفال باب الاجتهاد؛ لأنّ معناه لم يبقَ في الناس من تتوفر فيه شروط المجتهد ، ولا يرجى أن يكون ذلك في المستقبل ، وإنّما قال ذلك بعض المقلّدين لضعف ثقتهم بأنفسهم وسوء ظنّهم بالناس<sup>(١)</sup>.

### ٣ - المراغي

أنكر الشيخ المراغي على القائلين بغلق باب الاجتهاد ، قال : إنّي مع احترامي لرأي القائلين باستحالة الاجتهاد أخالفهم في رأيهم وأقول : إنّ في علماء المعاهد الدينية في مصر من توفّرت فيه شروط الاجتهاد وحرّم عليه التقليد<sup>(٢)</sup>.  
إنّ الإسلام - والحمد لله - قد نعى على الفكر المتحجّر ودعاه إلى الانطلاق في ميادين الفكر والعلم ، وليس من الحكمة في شيء إقفال باب الاجتهاد وفرض التقليد؛ إذ ليس في الاجتهاد استحالة ولا خروج عن الأدلة العلمية ، أمّا إقفاله فقد كان في وقت خاصّ فرضته الحكومات القائمة في تلك العصور كما ألمحنا إلى ذلك . وبهذا ينتهي بنا المطاف عن هذا الكتاب آملاً أن يجد فيه القراء المتعة والفائدة وهو ما أتمناه..

(١) يوم الإسلام: ١٨٩.

(٢) الاجتهاد في الشريعة (المراغي) ٣: ٣٥٠.

# المجلد الأول

الإهداء ..... ٧

تقديم ..... ٩

## الفقه لغةً واصطلاحاً وتأسيساً

المعنى اللغوي ..... ١٩

في الاصطلاح ..... ٢٠

تعريفه ..... ٢٠

موضوعه ..... ٢٠

غاياته ..... ٢١

المقدمات التمهيديّة ..... ٢١

علم النحو ..... ٢١

علم المنطق ..... ٢١

علم الدراية ..... ٢١

علم الأصول ..... ٢٢

نشأة الفقه الإسلامي ..... ٢٢

الدور الأوّل لتأسيس الفقه ..... ٢٣

منهاج التشريع ..... ٢٤

أولاً: المساواة بين المسلمين .....	٢٤
١ - المساواة أمام القانون.....	٢٤
٢ - المساواة في الضرائب .....	٢٥
٣ - المساواة في الواجبات .....	٢٦
٤ - المساواة في التوظيف .....	٢٦
ثانياً: الاخوة الإسلامية .....	٢٦
ثالثاً: الحريات.....	٢٨
١ - حرية العقيدة.....	٢٨
٢ - الحرية السياسية .....	٢٨
٣ - الحرية المدنية.....	٢٩
المناهج الاقتصادية.....	٢٩
١ - تشريع الزكاة.....	٢٩
٢ - الخمس .....	٣٠
٣ - الضمان الاجتماعي.....	٣١
٤ - الاتفاق على العاجزين.....	٣٢
٥ - المبرات للضعفاء.....	٣٢
٦ - التكافل الاجتماعي.....	٣٣
٧ - رقابة الدولة .....	٣٣
أ - منع الربا.....	٣٣
ب - منع الاحتكار.....	٣٤
الحقوق الدولية.....	٣٥
وجوب الوفاء بالعقود والمعاهدات.....	٣٦
الحقوق الإنسانية.....	٣٦

نظام الأسرة .....	٣٧
أولاً - الإشادة بالمرأة .....	٣٧
ثانياً - حقها في الزواج .....	٣٧
الطلاق .....	٣٨
الإرث .....	٣٨
الحقوق الجنائية .....	٣٩
عصر النبوة .....	٤٠
الإمام يصف قضاء النبي ﷺ .....	٤١
دور الإمام في أيام النبي ﷺ .....	٤٢
قصة الغلام .....	٤٢
زبية الأسد .....	٤٣
القارصة والقامصة والواقصة .....	٤٤
جماعة وقع عليهم حائط .....	٤٤
الدور الثاني .....	٤٤
في عهد أبي بكر .....	٤٥
الحكم على شارب لا يعلم بحرمة .....	٤٥
رجل احتلم بامرأة .....	٤٥
في عهد عمر .....	٤٦
١ - اتّهام امرأة بريئة بالبغياء .....	٤٦
٢ - فتى ادّعى على امرأة أنّها أمّه وهي تنكره .....	٤٧
٣ - امرأة تتّهم فتى بالاعتداء على كرامتها .....	٤٨
٤ - امرأتان تنازعتا في طفل .....	٤٨
٥ - رجم الحامل .....	٤٩

٤٩	٦ - قسمة مال الفيء .....
٥٠	٧ - شراء إبل .....
٥٠	عهد عثمان .....
٥٠	عهد الإمام .....
٥٢	السبطان .....
٥٢	الإمام الحسن .....
٥٤	الإمام الحسين .....
٥٥	المدونون للفقه في هذا الدور .....
٥٦	الدور الثالث .....
٦١	الإمام أبوجعفر الباقر .....
٦٢	علم أصول الفقه .....
٦٣	الاستصحاب .....
٦٣	قاعدة التجاوز .....
٦٤	قاعدة الفراغ .....
٦٤	قاعدة نفي الضرر .....
٦٥	علاج تعارض الأخبار .....
٦٧	مدرسة التابعين .....
٦٧	١ - سعيد بن المسيّب .....
٦٨	وثاقته .....
٦٨	وفاته .....
٦٨	٢ - عروة بن الزبير .....
٦٩	٣ - عبيد الله بن عبد الله .....
٦٩	٤ - عبد الرحمن .....

٥ - سليمان .....	٧٠
٦ - خارجة .....	٧٠
٧ - القاسم .....	٧٠
الدور الرابع .....	٧١
عوامل تأسيسها ونموها .....	٧٢
مركزها .....	٧٣
البعثات العلمية .....	٧٣
عدد طلابها .....	٧٤
المناهج العلمية .....	٧٥
فروع جامعيته .....	٧٦
الأُسَر العلمية في الكوفة .....	٧٧
١ - أُسرة آل أعين .....	٧٧
٢ - أُسرة أبي سارة .....	٧٧
٣ - أُسرة أبي شعبة .....	٧٧
٤ - أُسرة آل أبي صفية .....	٧٧
٥ - أُسرة آل أبي الجعد .....	٧٧
الاختصاصيون من طلابه .....	٧٨
اعتزاز وافتخار .....	٧٨
تدوين العلوم .....	٧٩
كتب تُسبِت للإمام الصادق .....	٨٢
١ - الجفر الأحمر .....	٨٢
٢ - مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة .....	٨٢
٣ - بحار الأنوار .....	٨٢

- ٤ - الهفت الشريف ..... ٨٢
- ٥ - الجعفریات ..... ٨٣
- الدور الخامس ..... ٨٣
- الدور السادس ..... ٨٤
- ١ - عثمان بن سعيد ..... ٨٤
- ٢ - محمد بن عثمان ..... ٨٥
- ٣ - الحسين بن روح ..... ٨٥
- ٤ - علي بن محمد السمری ..... ٨٦

## أصالة الفقه الإسلامي واستقلاله

- الفقه الإسلامي والقانون الروماني ..... ٨٩
- المفارقات بين الفقه الإسلامي والروماني ..... ٩٠
- الفقه الإسلامي والقوانين الوضعية ..... ٩١
- أهمية الفقه الإسلامي عند علماء القانون ..... ٩٣
- ١ - المؤتمر الدولي في لاهاي ..... ٩٤
- ٢ - مؤتمر المحامين الدولي ..... ٩٤
- ٣ - مؤتمر الحقوقيين في باريس ..... ٩٤

## مصادر التشريع الإسلامي

- أولاً - الكتاب العظيم ..... ٩٩
- حجية ظواهر الكتاب ..... ١٠١
- أولاً - حجية ظواهر الكلام ..... ١٠١
- ثانياً - الاستدلال بالآيات ..... ١٠٢

١٠٣	ثالثاً - الأخبار
١٠٤	المنكرون لحجة ظواهر الكتاب
١٠٥	١ - الأحاديث النبوية
١٠٥	٢ - أحاديث أهل البيت
١٠٧	ثانياً - السنة المقدسة
١٠٨	السنة عند الشيعة
١٠٨	حجة الشيعة
١٠٨	الكتاب العظيم
١٠٩	١ - آية التطهير
١١٠	٢ - آية المودة
١١٢	احتجاج العترة بالآية
١١٢	١ - الإمام أمير المؤمنين
١١٢	٢ - الإمام الحسن
١١٢	٣ - الإمام زين العابدين
١١٤	٣ - آية أولى الأمر
١١٤	أدلة الشيعة من السنة
١١٤	حديث الثقلين
١١٦	سند الحديث
١١٦	دلالة الحديث
١١٦	حديث السفينة
١١٧	أهل البيت أمان للأمة
١١٨	ما أثر عن الصحابة
١١٩	أنواع السنة



الخبر المتواتر .....	١١٩
الخبر الواحد .....	١١٩
أدلة المجوزين .....	١١٩
١ - آية النفر .....	١٢٠
٢ - آية النبأ .....	١٢٠
الأخبار .....	١٢١
أدلة المانعين .....	١٢١
أولاً: الآيات .....	١٢١
ثانياً: الاخبار .....	١٢٢
ثالثاً: الإجماع .....	١٢٤
أنواع الخبر .....	١٢٤
١ - الصحيح .....	١٢٤
٢ - الحسن .....	١٢٤
٣ - الموثق .....	١٢٥
٤ - الضعيف .....	١٢٥
الاحتياط في نقل الحديث .....	١٢٥
ثالثاً - الإجماع .....	١٢٦
تعريف الإجماع .....	١٢٦
الإجماع عند الشيعة .....	١٢٧
الطريق لمعرفة الإمام .....	١٢٧
١ - الحسن .....	١٢٧
٢ - قاعدة اللطف .....	١٢٧
٣ - الحدس .....	١٢٧

١٢٧	أنواع الإجماع
١٢٨	الإجماع المحصل
١٢٨	الإجماع المنقول
١٢٨	الشهرة
١٢٩	دليل العقل
١٣٠	القياس
١٣٠	أركان القياس
١٣١	قياس منصوص العلة
١٣١	القياس الممنوع
١٣٢	الاستحسان

## الاجتهاد بين الإيجاب والسلب

١٣٥	في اللغة
١٣٥	في الاصطلاح
١٣٦	مقدمات الاجتهاد
١٣٨	فتح باب الاجتهاد
١٣٨	المسائل المستحدثة
١٣٨	زرع أعضاء الموتى في أجسام الأحياء
١٣٩	بيع أعضاء الميت
١٣٩	طهارة عضو الميت بعد غرسه
١٣٩	بيع الدم
١٤٠	تشريح الميت لتعلم الطب
١٤٠	تحديد النسل

١٥٤..... الفقه الإسلامي : تأسيسه - أصوله - مداركه

أنواع الاجتهاد..... ١٤٢

سدّ باب الاجتهاد..... ١٤٢

المطالبة بانفتاح الاجتهاد..... ١٤٣

محتويات الكتاب..... ١٤٥



